مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية
في السودان الشرقي

١٤٥٠ - ١٨٢١

يوسف فضل حسن



هذا الكتاب

يضع بين يدي القارئ

الملامح الرئيسية للممالك الإسلامية في بلاد السودان الشرقي : نشوؤها وتطورها ومقوماتها . وما اقتران نشأتها بالهجرات العربية إلي سودان وادي النيل إلاتعبيراً عن غلبة الإسلام والثقافة العربية . وبعض هذه الممالك ، كما يناقش المؤلف - ما هي إلا امتداداً لتكوينات سياسية قديمة اكتسبت بالإسلام السند الروحي والثقافي، ودائماً مايبدأ هذا الإقتران بظاهرة تتكرر في الروايات الشفاهية ، يسميها المؤلف ظاهرة

"الغريب الحكيم"

يمهد المؤلف لحديثه عن الممالك الإسلامية بدخول العرب وانتشار الإسلام في البلاد، كما يتحدث عن دور الفقهاء والمتصوفة، وكيف تفاعل هؤلاء المهاجرون مع مقومات ومكونات الجماعات المحلية ، ثم يناقش قيام مملكة العبداللاب وسلطنتي الفونج والفور ومملكتي تقلي والمسبعات ، ويختتم المؤلف حديثه بمناقشة دور الإسلام ممثلاً في الفقهاء والمتصوفه وكيف أدى استيعاب كثير من شعوب السودان الشرقي للإسلام لخلق نوع من التماسك والترابط بين تلك المجموعات ، وأسهم في بذر نوى بعض المقومات الأساسية لوحدة وطنية و سياسية أبقي وأشمل من تلك الممالك نفسها.

يعتمد المؤلف في هذا الكتاب على دراسة تجميعية وتحليلية للروايات الشرقية المتناقضة والمصادر التاريخية النادرة وكتب الرحلات التي لاتخلو من الإضطراب وهكذا يمثل الكتاب مصدراً أساسياً لاغنى عنه لكل باحث أو مهتم بقضايا تاريخ السودان أوهويته الثقافية . وهذه هي الطبعة الخامسة لهذا الكتاب الذي مازال يحتل موقعاً مرموقاً في المكتبة السودانية.

دار السداد للطباعة

ت: ٠٠٢٤٩١٥٥١٨٨٢٥٤ / م: ٠٠٢٤٩٩١٢١٣٧٧٢٥

ردمك: ISBN: 978-99942-60-99-7

مقدمة
في تاريخ الممالك الإسلامية
في السودان الشرقي

١٤٥٠ - ١٨٢١

يوسف فضل حسن
جامعة الخرطوم



SUADTek Limited
Khartoum
٢٠١٢م

فهرسة المكتبة الوطنية - السودان

962.402 يوسف فضل حسن

ي.م

مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي

1450 - 1821

يوسف فضل حسن. - ط5 . - الخرطوم : سوداتيك المحدودة ، 2012.

166ص ؛ 24سم.

ردمك : 978-99942-60-99-7

1. السودان - تاريخ - العصر الإسلامي. أ. العنوان.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الحمدُ للّه فَاْتحَةُ كُل خَيْر﴾



الطبعة الأولي

معهد البحوث والدراسات العربية
الجامعة العربية . القاهره١٩٧١م

الطبعة الثانية

الدار السودانية للكتب . الخرطوم
١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م

الطبعة الثالثة

مطبعة جامعة الخرطوم
دار جامعة الخرطوم للنشر
الخرطوم ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

الطبعة الرابعة

١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م
سوداتك المحدودة
٢٠٠٣

الطبعة الخامسة

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م
سوداتك المحدودة
الخرطوم

محتويات الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة الطبعة الرابعة:	٧
تمهيد:	٩
الفصل الأول : هجرة العرب إلى السودان الشرقي	١٥
الفصل الثاني: العبد اللاَّب :	٢٩
١- العبداللاَّب وسقوط مملكة علوة	٣١
٢ - مملكة العبداللاَّب	٤٣
الفصل الثالث: سلطنة الفونج:	٥١
أ - أصل الفونج وموطنهم	٥٣
ب - الحلف الفونجاوي - العبداللاَّبي	٦٩
الفصل الرابع: سلطنة الفور : (نشأتها وتطورها)	٩١
الفصل الخامس: ممالك كردفان :	١٠٩
أ - مملكة تقلي	١١١
ب - سلطنة المسبعات	١١٧
الفصل السادس: إنتشار الإسلام في السودان الشرقي	١٣٥
ثبت المصادر والمراجع	١٥٩

مقدمة الطبعة الخامسة

يسعدني أن أقدم الطبعة الخامسة من كتاب مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي الذي نفدت طبعته الرابعة منذ بضع سنوات. وكنت قد قدمت هذه الدراسة في سلسلة محاضرات علي طلاب الماجستير بقسم التاريخ بمعهد البحوث والدراسات العربية، التابع لجامعة الدول العربية، بالقاهرة في عام ١٩٧١م.

والكتاب بصورته الحالية يمثل الخطوط العريضة لدراسة أعمق وأشمل عن تاريخ الممالك الإسلامية في سودان وادي النيل كنت قد بدأتها منذ أربعة عقود من الزمان. وقد تمكنت بحمد اللّه من جمع مادة وفيرة حول هذا الموضوع آمل أن يري بعضها النور قريباً .

هذه الطبعة الجديدة لا تحمل تغييراً جوهرياً في متن الكتاب وإنما تداركت فيها بالتصويب بعض الأخطاء التي وردت في الطبعات السابقة . وقد إزدهت هذه الطبعة بلمسات الأستاذة كلثوم فضل اللّه تصويباً وتنسيقاً علي جهاز الكمبيوتر فلها الشكر والتقدير . كما لا يفوتني أن أشكر الفنان التشكيلي الأستاذ الدكتور راشد دياب الذي زيَّن بريشته غلاف الكتاب فازدان به رونقاً.

وإني إذ أشكر من ألحوا علي في إعادة طبعه، آمل أن يجد فيه القارئ الفائدة المرجوة.

بريُ الخرطوم

الثلاثاء ٢٥ جمادي الأول ١٤٣٣هـ

١٧ أبريل ٢٠١٢م

تمهيد

شهد مطلع القرن السابع الميلادي مولد دين جديد بزغ فجره في بادية العرب في الحجاز، على يد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذي واجه قومه من العرب ثم واجه العالم كله ممثلاً في الفرس والروم. فاصطدمت الدعوة الجديدة، بعد أن كسبت العرب، بالفرس فقضت على دولتهم واحتوتهم ثم اجتزأت من الروم الشام ومصر. وتوغل الإسلام شرقاً فاكتسب أتباعاً جدداً من الهند والترك، وسار غرباً حتى بلغ ساحل بحر الظلمات. وكانت ممالك النوبة المسيحية وبلاد البجة وما وراءهما من شعوب، وهم جيران الحجاز ومصر، من أوائل الأمم تأثراً بالإسلام. ولكن بالرغم من تعدد الروافد التي تسربت منها المؤثرات الإسلامية وتنوعها فإن تحول السودان الشرقي إلى "دار إسلام" كان بطيئاً.

نعنى بالسودان الشرقي المنطقة الواقعة جنوب مصر والصحراء الكبرى والتي تمتد حتى خط عرض ١٠ أو ١١ شمالاً وتمتد من البحر الأحمر حتى إقليم دارفور في الغرب، وبعبارة أخرى نفس الأقاليم التي تكوّن جمهورية السودان، عدا بعض الأجزاء الجنوبية منها. وتعود صلة العرب ببلاد السودان الشرقي إلى أزمان بعيدة قبل ظهور الإسلام. فقد عبر بعضهم البحر الأحمر، رغم عسر ملاحته، طلباً للثراء أو بحثاً عن الكلأ و شق آخرون طريقهم عبر صحراء سيناء.

تشهد على هذه الهجرات الأخبار التاريخية والآثار الحميرية التي أكتشفت في منطقة حلايب، كما يؤكدها وجود بعض المجموعات القبلية كالبني عامر التي تتحدث لغة التقرى " Tigre "وهي لغة سامية. وإزدادت تلك الصلة أهمية وعمقاً بظهور الإسلام الذي أعطاها السند الروحي والمادي فتدفق العرب في أعداد كبيرة حتى وقفوا على أبواب النوبة والبجة، وعقدوا معهم الهُدَن والمعاهدات، وتحت ستار تلك الاتفاقيات توغل التجار العرب حتى بلغوا سوبا. وفي بطء ويسر داما بضعة قرون انفتح المهاجرون العرب على المجموعات الوطنية من بجة

ونوبة وعنج وغيرهم، فعايشوهم واختلطوا بهم مصاهرة واسترقاقاً، واستغلوا نظام الوراثة عن طريق الأم حتى مكَّنوا لأنفسهم وتبوءوا الوظائف القيادية في مجتمعهم الجديد ونشروا الإسلام بين المجموعات المسيحية والوثنية من سكان السودان الشرقي .

ولما كان لكلمة "عرب" التي ترد كثيراً في هذه المقدمة أكثر من معنى فلا بد من ذكر معانيها في شيء من التفصيل. ولعل أول معنى لها هو العربي ساكن الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام سواء أكان هذا العربي من العرب العاربة أم العرب المستعربة. ويبدو أن الميزتين اللغوية والعرقية كانتا من أهم خصائص العربي في ذلك الحين. وهذا لا ينفي أن بعض من عرفوا بأنهم عرب مثل أبناء الأفراد الذين وفدوا من أفريقيا واختلطوا بالعرب الأصليين اختلاطاً كاملاً، اكتسبوا العروبة بالمصاهرة أو الثقافة. وهذا المعنى الأخير هو الذي وسَّع مفهوم "العروبة" فعندما نقل المحاربون العرب الدين الإسلامي عبروا حدودهم التقليدية واختلطوا بالشعوب المغلوبة، استعربت تلك الأمم وتمثلت الثقافة العربية والإسلامية. فهؤلاء المستعربون لم يكونوا عرباً أصلاً وإنما هم عرب بالمولد وعرب بالثقافة وعرب بالوجدان. يستوي في ذلك من استعرب من الفينيقيين وقدماء المصريين والبربر. فإذا انتشرت العروبة بين النوبة أو غيرهم من الشعوب التي تسكن السودان الشرقي، وتفهموا ثقافتها وشعروا أنهم جزء من حضارتها وتراثها فإن هذا يؤهلهم ليصيروا جزءاً منها. ولكن اختلاط العرب وتزاوجهم من نساء النوبة وتمثلهم للنسب العربي لا يجعل منهم عرباً خلصاً من ناحية عنصرية أو عرقية كما يتوهم البعض، بل هم نوبة أو سودانيون مستعربون إذا جاز هذا التعبير.

لعل ما ذهبنا إليه يتفق مع مفهوم العروبة في نظر الإسلام الذي جاء في هذا الحديث الشريف الذي رواه الحافظ بن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: "جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان

الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال: هؤلاء الأوس والخزرج قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هؤلاء ؟ فقام إليه معاذ فأخذ بتلابيبه حتى أتى به النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بمقالته. فقام رسول الله صلي الله عليه وسلم مغضباً يجر رداءه حتى دخل المسجد ثم نودي (الصلاة جامعة)، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إن الرب واحد وإن الأب أب واحد، وإن الدين دين واحد، ألا وإن العربية ليست لكم بأب ولا أم إنما هي لسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي، فقال معاذ وهو آخذ بتلابيبه: ما تقول في هذا المنافق؟ فقال: دعه إلى النار. قال: فكان ممن ارتد فقتل في الردة".[١]

لما وضحت غلبة الإسلام وشيوع الثقافة العربية وانتشار القبائل العربية في أجزاء كبيرة من السودان الشرقي، ظهرت سلسلة من السلطنات الإسلامية التي امتدت عبر هذه الأقاليم في الفترة الواقعة بين منتصف القرن الخامس عشر ومنتصف القرن السابع عشر، وهي ممالك العبداللاَّب والفونج وتقلي والمسبَّعات والفور.

وكانت أولى هذه الممالك ظهوراً هي مملكة العبداللاَّب[٢] التي نشأت في الجزء الشمالي من السودان الشرقي مهد بعض الحضارات القديمة المعاصرة لعهد الأسرات في مصر ومركز الثقل الحضاري والسياسي في عهد علوة. وقد تعرضت هذه المنطقة إلى قدر كبير من النفوذ العربي ممثلاً في استقرار مجموعات كبيرة من العرب فيها ومن ثمّ تمت الغلبة فيها للثقافة العربية. وقد هيأ لها إزدهار عدد من المراكز الدينية الهامة أن تتصدر الزعامة الدينية والروحية وأن تكون مصدر إشعاع إسلامي وحضاري لباقي أقاليم السودان الشرقي. فما أن تم لهذا الإقليم الصدارة الثقافية والدينية حتى بدأت هجرة العلماء والفقهاء ورجال الطرق الصوفية إلى المناطق حديثة العهد بالإسلام أو الواقعة على أطراف دار الإسلام ولم تبلغها الدعوة المحمدية سواء أكانت في داخل تكوينات سياسية في السودان الشرقي أم في خارجه. وبعبارة أخرى فإن

معظم من حملوا المشعل كانوا جيلاً جديداً من المسلمين: من النوبة المستعربين وأمثالهم: من الركابية أو البديرية أوالمحس أوالجعليين.

إن إقتران نشأة هذه الممالك الإسلامية بهجرة العرب إلى السودان الشرقي وانتشار الثقافة الإسلامية دفعني لأن أركز ملاحظاتي على نشأة تلك الممالك وتطورها مستهدفاً إبراز مقوماتها الأساسية ومعالمها الرئيسية في حدود ما تقدمه الروايات الشفوية المتناقضة والمصادر التاريخية النادرة وكتب الرحلات التي لا تخلو من شيء من الاضطراب.

ورث بعض هذه الممالك تنظيمات أو عناصر سياسية وحضارية قديمة فمن هؤلاء العبدالـلاَّب وهم حلف كبير احتوى عدداً من المشيخات التي ورثت التنظيمات السياسية الموجودة في مملكتي المقرة وعلوة. وبعد هزيمة العبداللاَّب على يد الفونج، الذين أنشأوا مملكة في جنوب الجزيرة، اتسعت دائرة التكوينات السياسية الأولي في إطار حكم ثنائي أو حلف عبداللاَّبي فنجاوي. والفونج لا يمثلون مجموعة قبلية خاصة بل الراجح أنهم صفوة أرستقراطية حاكمة. ومن هذه الممالك الفور الذين ورثوا تقاليد الحكم التي خلفها الداجو والتُنْجُر ولكن الأسرة الحاكمة تنتمي إلى قبيلة الفور. أما ملوك تقلي فيمثلون مجموعة قبلية ذات تقليد سياسي إتخذت من إحدى جبال النوبة منطلقا لها. ويصعب وضع المسبَّعات في واحد من هذه التقسيمات. ولعل سبب فشلهم في إقامة مملكة لهم أنهم لم يرثوا تنظيماً سياسياً ذا كيان محدد بل ظلوا يمثلون طموحات أسرة تسعي لإنشاء مملكة في أواسط كردفان وتؤمل أن تسترد عرش آبائها الفور.

ربما كانت هذه الممالك الإسلامية إمتداداً لتكوينات سياسية قديمة وليست صورتها الجديدة إلاّ تعبيراً عن غلبة الإسلام و الثقافة العربية. ولعل في تكرار ظاهرة قدوم رجل "غريب حكيم" من منطقة متحضرة خير دليل. وظاهرة "الغريب الحكيم" تتواتر في الروايات الشفهية التي تؤرخ لنشأة معظم تلك الممالك فهو "عربي أو مسلم" "فرداً كان أو جماعة" يتزوج من أسرة ذات رئاسة ثم يرث

أبناؤه الملك. ويعتنق الزعيم المحلي الإسلام وكذلك أهله ويكون ذلك بداية لتوسع سياسي أو لخلق أحلاف أو لتنظيم الهيكل الإداري القديم واستغلاله بصورة أفضل. ويكون ذلك منطلقاً للإتصال بالعالم الخارجي وتنشيط التجارة الخارجية. وقد كانت الاستفادة أو السيطرة على التجارة الخارجية واحدة من المقومات التي ساعدت على توطيد أركان هذه الممالك.

ليس قصدي من هذه الصفحات أن أقدم دراسة تفصيلية لتاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي بل أن أنبّه القارئ العربي عامة والسوداني خاصة لأهمية هذه الحقبة في تاريخ السودان. وأعتذر للقارئ أن ضيق المكان لم يسمح لي بالتفصيل والتتبع والاستقصاء لكل مظاهرها، بل ركزت على العوامل التي ساعدت على قيام تلك الممالك واكتفيت بالإشارات العامة لما سواها آملاً أن أعود إليها في دراسة أخرى.

هوامش التمهيد:

(١) ابن عساكر: ٤٥٠ - دلني على هذا الحديث الشريف أستاذي وصديقي الدكتور عبد المجيد عابدين رئيس شعبة اللغة العربية بجامعة القاهرة فرع الخرطوم وله شكري وتقديري.

(٢) تتكون هذه الكلمة من ثلاث مقاطع: عبد، اسم الجلالة، اللَّه، وآب، والمقطع الأخير من أصل بجاوي أو تبداوي ومعناه أسرة، فرع، قبيلة أو آل. فآل عبد اللَّه هم العبداللاَّب، وهم الأسرة التي أنشأ جدها مملكة العبداللاَّب والنسبة الى عبد اللّه عبداللاَّبي إذا أردنا بيان الأصل وقد درج قدامي السودانيين على كتابتها عبدالاب - دون شدة- ولعل الرسم الذي يوافق النطق هو عبداللاَّب وهو ما التزمت به في هذا الكتاب .

الفصل الأول

هجرة العرب
إلى
السودان الشرقي

هجرة العرب إلى السودان الشرقي

في خلال القرون السبعة التي تلت فتح العرب لمصر وتوقيعهم لـ "عهد النوبة" إثر هجومهم على دنقلا في عام (٦٥١-٦٥٢م) تسرب العرب جماعات وأفراداً في يسر وبطء إلى بلاد البجة ومملكتي النوبة (المقرة وعلوة) المسيحيتين سعياً وراء المرعى وطلباً للتجارة. وكان توغلهم هذا عن طريقين أساسيين:[١] أولهما من مصر عن طريق نهر النيل وثانيهما من الحجاز عبر البحر الأحمر عن طريق موانئ باضع، وعيذاب وسواكن التي كان منشؤها وازدهارها متصلاً إلى حد ما بهيمنة العرب والمسلمين على مناجم الذهب والزمرد في الصحراء الشرقية أو ماعرف بأرض المعدن واشتغالهم بنقل البضائع الهندية والحجيج بين تلك الموانئ وصعيد مصر.[٢]

وفي أثناء تدفق العرب نحو أرض المعدن نجح عبد اللّه بن عبد الحميد العمري (٨٥٥ -٨٧٩ م) في توطيد نفوذ العرب السياسي تحت قيادته. وربما وضع بذلك نواة أول إمارة عربية في أرض المعدن، وبعد فترة تمكنت قبيلة ربيعة بزعامة بشر بن مروان (٩٤٣م)، الذي اشتهر بصاحب المعدن من بسط نفوذها على أجزاء كبيرة من تلك المنطقة، بعد أن تحالفت مع قبائل مضر ويمن وتصاهرت مع القبائل البجاوية ولا سيما الحداربة. فمكّنت لنفسها بين البجة بفضل نظام الوراثة عن طريق الأم الذي كان متفشياً في أجزاء كبيرة من السودان الشرقي. وفي نفس الوقت استقر فرع آخر من ربيعة في المحدثة بالقرب من أسوان، محاولاً بسط نفوذه على المريس، أي الجزء الشمالي من بلاد النوبة. وعلى أثر خلاف بين الفرعين استطاع زعيم الفرع الثاني، أبو عبد اللّه محمد المشهور بأبي زيد بن بشر أن يجمع شمل الفرعين، وإزدادت بذلك قوتهما السياسية. وتمكن ابنه أبو المكارم هبة اللّه أن يؤدي خدمة جليلة للفاطميين

عندما قبض على الثائر الأموي أبي ركوة الوليد بن هاشم فكافأه الحاكم بأمر الله، الخليفة الفاطمي (٩٩٧ - ١٠٢١م)، وخلع عليه لقب كنز الدولة. وفي إغداق ذلك اللقب على زعيم ربيعة تقدير لمجهودات تلك الأسرة العربية واعتراف ضمني بمكانتها السياسية. ولم يأل بنو الكنز جهداً في بسط نفوذهم على أرض المريس فأصبحوا قوة محلية يعتد بها، واستطاعوا عن طريق المصاهرة[٣] مع النوبيين أن يبسطوا نفوذهم على الجزء الشمالي من بلاد النوبة، وتمكنوا من مصاهرة البيت المالك في دنقلا ممهدين لأنفسهم إعتلاء عرش النوبة بعد أن أضعفته الحملات المملوكية.

يعتبر العهد المملوكي (١٢٥٠- ١٥١٧م) نقطة تحول حاسمة في علاقة مملكة النوبة (أو المقرة) بمصر الإسلامية، فقد اختطّ الملك داؤد سياسة هجومية دفاعية ضد مصر عندما غزا كلا من عيذاب وأسوان في سنة ١٢٧٢م. وكان رد المماليك أن أرسلوا سلسلة من الحملات العسكرية لوضع حد لهجمات النوبة، ثم لجعل مملكة المقرة دولة تابعة لمصر. وتحقيقاً لهذه السياسة استغل سلاطين مصر خلافات البيت الحاكم حول اعتلاء العرش وبعثوا بالأمراء النوبيين الذين أُسروا وعاشوا في مصر على رأس تلك الجيوش. كما صحب الحملات المملوكية -التي أخذت تغزو بلاد النوبة من سنة ١٢٧٥م- أعداداً كبيرة من المقاتلين العرب الذين زهدوا في الحياة بمصر بعد تسلط المماليك عليها، وضاقت بهم سبل كسب العيش، كما أن المماليك أنفسهم شجعوا تلك المجموعات العربية أو العربان على مصاحبة تلك الجيوش -ربما للتخلص منها. ففي الحملة التي أرسلها السلطان المنصور قلاوون سنة ١٢٨٨م خرجت أعداد كبيرة من بني أبي بكر وبني عمر، وبني شريف، وبني شيبان، وبني الكنز، وبني هلال، وغيرها.[٤] ويؤكد ابن الفرات أن الجيش المملوكي الذي غزا النوبة في عام ١٢٨٩م كان يضم مالا يقل عن أربعين ألفاً من الأعراب. وعلى الرغم من أن هذا الرقم لا يخلو من المبالغة فإن كبره يشير إلى كثرة من هاجروا من صعيد مصر إلى بلاد النوبة في

القرن الرابع عشر.(٥)

لقد كانت حملات سلاطين مصر من أهم الأسباب التي أضعفت السياج السياسي لنظام الحكم في بلاد النوبة ومهدت لغلبة العرب الذين استطاع روادهم من بني الكنز اعتلاء عرش النوبة في سنة ١٣٢٣م، معتمدين على نظام الوراثة عن طريق الأم وعلى تأييد النوبة المستعربين والعرب الذين صاحبوا الجيوش المملوكية، فانتقلت السلطة داخل الأسرة الحاكمة من فرع نوبي مسيحي خالص الى فرع نوبي مسلم مستعرب. وبسقوط مملكة المقرة المسيحية في أيدي المسلمين إنهار السد المنيع الذي كان يحول لعدة قرون دون توغل العرب في حوض النيل الأوسط. ومن ثم تدفقت القبائل الساخطة على نظام الحكم في مصر إلى بلاد النوبة ثم إلى المراعي الواسعة عبر صحراء العتمور.

ونتيجة لتدخل المماليك لم يعد النظام الذي ورثه بنو الكنز قادراً على الصمود طويلاً أمام تدفق العربان من الشمال الشرقي، فاضطر بنو الكنز إلى التقهقر إلى الدر (أو الدو) في المريس تاركين بلاد النوبة في أواخر القرن الرابع عشر في حالة سيئة من الفوضى.

لعل ما كتبه ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٥ - ١٤٠٦م) يعكس حالة الضعف والوهن التي تردت إليها البلاد بعد أن تفتّتت قوى حكومة المقرة المركزية وتدفق العرب في أعداد كبيرة على بلادهم فاستحوذوا عليها، يقول ابن خلدون واصفاً حالة مملكة النوبة في آخر عهدها: "إن الجزية انقطعت بإسلامهم (أي النوبة) ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة في بلادهم واستوطنوها وملكوها وملأوها عبثاً وفساداً وذهب ملوك النوبة إلى مدافعتهم فعجزوا ثم ساروا إلى مصانعتهم بالمصاهرة فافترق ملكهم، وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم على عادة الأعاجم في تمليك الأخت وابن الأخت فتمزق ملكهم واستولى أعراب جهينة على بلادهم وليس في طريقه شيء من السياسة الملوكية للآفة التي تمنعهم من انقياد بعضهم إلى بعض. فصاروا شيعاً إلى هذا العهد. وإنما هم رحالة بادية

يتبعون مواقع القطر شأن بوادي الأعراب، ولم يعد لبلادهم رسم للملك لما أحالته صبغة البداوة العربية من صبغتهم بالخلطة والالتحام ".(٦)

إلا أنني أميل إلى الاعتقاد بأن بني الكنز أدوا دوراً قيادياً هاماً في سقوط المقرة، غير أن هذا الترجيح لا ينفي أن جهينة كانت من أهم وأكبر القبائل العربية التي توغلت في السودان ومن ثمَّ قامت بدور كبير في الهجرة العربية. فقد كانت جهينة من أوائل القبائل التي اشتغلت بالتعدين في الصحراء الشرقية وانتشرت بطونها بين البجة، كما أقلق بنو عرك، فرع من جهينة، مضجع المماليك في صعيد مصر حتى اضطروهم للهجرة جنوباً. وكما قال ابن خلدون في موضع آخر فإنهم انتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة.(٧)

ولعل التفكك الذي أصاب النوبة والشيع التي آلت إليها جهينة ونبَّه إليها إبن خلدون تشير إلى الزعامات أو الإمارات العربية التي كانت تنتشر بأبواب النوبة وعلى الطرقات الموصلة من الديار المصرية حتى بلاد الحبشة. وقد ذكر القلقشندي (١٣٥٥-١٤١٨م) أسماء ثمانية من الزعماء العرب ممن كانوا يكاتبون السلطات المملوكية حتى بعد عام ١٣٦٨م، وهم سمرة بن كامل العامري وعبادة بن قاسم وكمال بن سوار وجنيد، شيخ الجوابرة، وشريف، شيخ النمانمة، وعلى، شيخ دغيم، وزامل الثاني وأبو مهنا العمراني.(٨)

وكما شهدت بلاد النوبة تطورات سياسية حاسمة في القرن الرابع عشر، فقد شهدت بلاد البجة والصحراء الشرقية خلال ذلك القرن

ففي القرن الرابع عشر تم إغلاق معادن الذهب والزمرد لقلة العائد منها، وشهد تحول قوافل الحجيج من الصحراء الشرقية إلي طريق سيناء مرة أخرى بعد أن تخلص المماليك من بقايا الاحتلال الصليبي للأماكن المقدسة، واضمحلت أهمية ميناء عيذاب بعد أن قل الوارد من التجارة الشرقية وذلك عندما فضل المماليك ميناء جدة على عيذاب. ومن جراء هذا كله فقدت بلاد البجة والصحراء الشرقية مقوماتها الاقتصادية التي جذبت كثيراً من العرب إلى تلك

المنطقة حتى جعلت منها مستودعاً يموج بالقبائل العربية أمثال: جهينة، ومضر، ويمن، وبلّىّ، وبني كاهل، ورفاعة، وبني سليم، وبني هلال، وقيس عيلان، وربيعة، وبني علق، وبني يونس، وتميم، ودغيم، وبني يشكر وسعد العشيرة. وقد أدى هذا الركود الاقتصادي إلى نتيجتين هامتين: **الأولى أنه لم تعد بلاد البجة منفتحة بدرجة كبيرة على المؤثرات العربية والإسلامية إذ لم يبق إلاّ ما تسرب من مؤثرات عن طريق سواكن، ومن ثَمّ أصابت البلاد عزلة ثقافية قاتلة. الثانية** اندفاع كثير من المجموعات العربية التي كانت تعيش في أرض البجة، بعد أن فقدت مصدر رزقها نحو الجزء الجنوبي من **مملكة المقرة وسهول مملكة علوة** الغنية بالمراعى.

نتج عن هذين الحدثين الهامين وهما **سقوط مملكة المقرة المسيحية من جهة** وزوال العوامل التي هيأت إنتعاش اقتصادي في الصحراء الشرقية من جهة أخرى أن تدفق المهاجرون العرب في أعداد كبيرة **نحو مملكة المقرة**. وقد جاءت معظم هذه القبائل كما تؤكد المصادر العربية (٩) **بمحاذاة نهر النيل**، حتى منطقة دنقلا، بينما شقت مجموعة أخرى طريقها **إلى بلاد البجة** حيث التقت بالمجموعات التي سبقتها فاندفعت كلتاهما إلى **المنطقة الوسطى** من حوض نهر النيل، وأرض البطانة والجزيرة. وعبر المهاجرون الذين وصلوا مؤخراً النيل إلى سهول كردفان ودارفور حيث إلتقوا بموجة أخرى كانت قد تبعت درب الأربعين أو الضفة الغربية للنيل ومنها تسربوا عن طريقي وادي الملك ووادي المقدم حتى بلغوا مملكة كانم -برنو في أواخر القرن الرابع عشر- (١٠) حيث كان الإسلام قد بلغ تلك الجهة قبل عشر سنوات من طريق المغرب.

لا شك أن تسرب هذه القبائل العربية منذ أواسط القرن الرابع عشر في أعداد كبيرة إلى مملكة علوة، التى تمتد من الأبواب (كبوشية) حتى منطقة سنّار، أدى بدرجة كبيرة إلى الاختلاط والمصاهرة بين العرب الوافدين والوطنيين على نسق لا يختلف كثيراً عما تم بين ربيعة والبجة من جهة، وبينها وبين النوبة من

جهـة أخرى. ونتـيجـة لنظام الوراثة عن طـريق الأم تبـوأ العـرب أمـاكن السلطة، وعن طريق الالتحام نشروا تدريجياً الإسلام والثقافة العربية؛ وتمثل الوطنيون اللغة العربية والأنساب العربية تمثُلاً تاماً. ولكن من المدهش أن البجة والنوبة، رغم أنهم أول من اتصل بالإسلام واللغة العربية، حافظوا على لغاتهم المحلية، وعلى إثر ذلك شهد الجزء الشمالي من السودان الشرقي اختلاطاً بين العرب والنوبة والبجة من جهة وبين الإسلام والمسيحية والوثنية من جهة أخرى. وكيفما كان الأمر فإن اكتمال انتشار الثقافة الإسلامية وغلبتها كان من مجهود الفقهاء ورجال الطرق الصوفية، في كنف ملوك العبداللاَّب والفونج والفور إلى حد ما.

العرب وعلوة

يتبين لنا من هذه المقدمة أن موجات الهجرة العربية التي بدأت في القرن التاسع الميلادي وبلغت ذروتها في القرن الخامس عشر وتدفقت من منافذ كثيرة حتى وصلت منطقة كانم-برنو لابد أن تكون قد أضعفت مملكة علوة، خلال القرن الرابع عشر، إن لم تكن قد قضت عليها كما قضت على مملكة المقرة من قبل. وحقيقة الأمر أن ندرة المصادر التي تؤرخ للسودان الشرقي بين سقوط دنقلا في سنة ١٣٢٣م وقيام مملكة الفونج في أوائل القرن السادس عشر تجعل من المتعذر علينا أن نطمئن إلى كثير من الأخبار التي راجت عن سقوط سوبا بعد قيام مملكة الفونج. ويبدو لي أن سقوط علوة كان نتيجة مجهود عربي، وأن الفونج لم يظهروا على مسرح الحوادث إلا بعد أن استتب الأمر للعرب بقيادة العبداللاّب، وهذا ما أرجو أن أوفق إلى إثباته.

ولم تكن علاقة العرب بعلوة وليدة القرن الرابع عشر بل ترجع إلى القرون الأولى من ظهور الإسلام. فقد ذكر اليعقوبي(١١) الذي كتب في النصف الثاني من القرن التاسع أن المسلمين كثيراً ما كانوا يترددون على عاصمتها سوبا في أيامه. ويؤكد الداعية الفاطمي أحمد بن عبد اللّه بن سُليم الأسواني الذي زارها في أواخر القرن العاشر أن المسلمين قد توغلوا في علوة بقصد التجارة بما في ذلك تجارة الرقيق وقد شيدوا لهم رباطاً خاصاً في سوبا.(١٢) ويخبرنا الدمشقي (ت ١٣٣٨م) أنه قد جمع معلوماته عن تلك المنطقة من تجار أسوان الذين يترددون عليها. (١٣)

جذبت علوة غير تجار الرقيق مجموعات من البدو ممن لم يُغْرِها الاشتغال بالتعدين والعمل في نقل البضائع الشرقية، بل كان هدفها الوصول إلى المراعي الشاسعة التي اشتهرت بها علوة، فتسربت تلك المجموعات في بطء ويسر داما قروناً حتى اختلطت بالوطنيين. وازدادت الهجرة بعد الهجمات المملوكية الأولى

على بلاد النوبة وخاصة عندما تعهد الملك شكندة سنة ١٢٧٦م للمماليك أن يمنع العرب من الاستقرار في بلاده وأن يبلغ السلطان عن وجود أي مجموعات منهم. وكان المماليك يرمون من وراء تلك السياسة إلى الإستفادة من المقاتلين العرب في حرب النوبة ولكن دون أن يستقر العرب فيها وينقلوا إليها الصراع الدائر بينهم وبين السلطات الحاكمة في صعيد مصر.[١٤] ورغم تعذر تنفيذ مثل هذه السياسة فإن العودة لمصر كانت بعيدة عن تفكير العربان أنفسهم. كما أن قلة الأمطار في بلاد النوبة وضيق الأراضي المزروعة على شاطئ النيل لم تكن لتغريهم بالإستقرار. ومن ثمَّ كان من الطبيعي أن ينساحوا جنوباً إلى علوة حيث يتوافر المرعى، وتتسع الأراضي الزراعية. وبعد سقوط مملكة المقرة وانتشار الركود الاقتصادي في الصحراء الشرقية تدفق العرب في أعداد كبيرة في مملكة علوة حتى غلبوا أهلها على أمرهم.

يستشف من المصادر المعاصرة على قلتها أن مملكة علوة قد أصابتها بعض مظاهر الضعف،

أولاً: إن عدم ذكر سوبا في المكاتبات الدائرة بين المماليك وعلوة يثير شيئاً من التساؤل والاستغراب، هل سقطت كما رجح آركل،[١٥] أم ماذا؟ وفي واقع الأمر فإن معظم الإتصالات التي وصلتنا كانت مع الملك أدر ملك الأبواب، وهي المقاطعة الشمالية من مملكة علوة كما أشارت المصادر الى سبع مقاطعات ليس من بينها سوبا وهي دانفو، ارى، نافيل، كرسي، بارا، الكدرو، والأنج أو العنج.

ثانيا : أثارت أولى حملات المماليك التي انتهت بهزيمة الملك داؤد وهروبه إلي الأبواب هلع حكام علوة فسارع ملك الأبواب بإلقاء القبض عليه وإرساله إلى القاهرة، حتى يأمن شر المماليك ويكسب ودهم. وكرر ملك الأبواب هذا الصنيع نحو كل الأمراء النوبيين الهاربين من بطش المماليك. وفي عام ١٢٨٥م أعلن الملك أدر الطاعة والإذعان لحكام مصر ولكنه اشتكى من سوء معاملة ملك المقرة. فبعث السلطان بوفد للتحقيق في تلك الشكوى وزار الوفد كل المقاطعات

التي أسلفنا ذكر أسمائها وفي سنة ١٢٩٠م اعتذر ملك الأبواب عن عدم تمكنه من المثول شخصياً بين يدي السلطان وذلك لإشتغاله بتعقب أحد الثوار.

ثالثاً: أن الملك ساق عذراً آخر وهو أن منطقة الأنج أو العنج وهم من سكان الجزيرة قد تعرضت إلى غزو من الخارج، واضاف قائلاً: إنه إذا تخلص من ذلك الخطر ستصير كل بلاد السودان إلى علوة تابعة للسلطان الملوكي.

رابعاً: كما هو الحال في المقرة فإن كنيسة علوة التي كانت بمثابة الأساس الروحي والسياج المعنوي، ضعفت وذبل نفوذها بعد توقف إرسال قساوسة من الكنيسة الأم بالإسكندرية منذ أواسط القرن الرابع عشر، فأصاب البلد فقر روحي وشظف ثقافي.[١٦]

هذه كلها بعض مظاهر الضعف التي أصابت مملكة علوة، وربما كان من أسبابها الضرر الذي أحدثته تجارة الرقيق التي أفقدت علوة بعض العناصر الشابة التي ربما استطاعت أن تقف في وجه المهاجرين العرب. ثم إن إمكانيات الدولة قد أنهكتها محاولات الحكومة لوضع حد للهجرات العربية والتي وإن كانت تتسم بالهدوء ومحاولة معايشة السكان الوطنيين، إلاَّ أن حدوث حرب بين الطرفين ليس بالمستبعد، بل أن العرب كثيراً ما اعتدوا على السكان المستقرين على شواطئ النيل، على عادة البدو، أملاً في مصادرة أموالهم. وقد بلغت العلاقة، فيما يبدو لي، درجة سيئة بين الطرفين عندما أخذ العرب أنفسهم يستقرون على شواطئ النيل وينافسون الوطنيين ويضيقون الحصار على منطقة ملتقى النيلين - أي منطقة سوبا. ونجد في إنشاء مدينة أربجي [١٧] (جنوب الحيصاحيصا) والتي صارت مدينة تجارية هامة في عهد الفونج، في نحو ١٤٧٤م على يد حجازي بن معين، تأييداً صريحاً لما ذهبنا إليه؛ كما نجد في الروايات الوطنية التي سنتعرض لها فيما بعد، ما يؤكد نشوب حرب بين العرب وحكام علوة.

لعل ما أشار إليه ابن خلدون واصفاً دور قبيلة جهينة في هذه الهجرة يعطي صورة مطابقة لما ذهبنا إليه إذ يقول: "وانتشروا -أي جهينة- ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة، وكاثروا هناك سائر الأمم وغلبوا على النوبة، وفرقوا كلمتهم وأزالوا ملكهم وحاربوا الحبشة فأرهقوهم إلي هذا العهد".(١٨) ويبدو لي، حيث أنه لم يثبت حدوث حرب بين الأحباش والعرب في القرن الرابع عشر، وقت كتابة ابن خلدون لتاريخه، إن كلمة الحبشة استعملت في شيء من التعميم وأنها تشمل كل من سكن الصحراء الشرقية وأرض البطانة، والمنطقة الواقعة جنوب المقرة - أي علوة. كما أن دور جهينة التي تنتمي إليها أم عبد اللّه جمّاع قائد الحلف العربي، الذي أدى إلى سقوط علوة، يرد في كثير من الروايات الوطنية.

أما الوقت الذي حدثت فيه هذه الحرب بين العرب وحكام علوة فيصعب تحديده، وليس لدينا ما نتكئ عليه بدءاً سوى الروايات الوطنية التي تناقلها الناس جيلاً بعد جيل ودوِّنت في أواخر عهد مملكة الفونج، وجمع بعضها منذ سنوات قليلة، ثم بعض كتابات الرحالة الأوروبيين وعلى رأسهم بروس.

هوامش الفصل الأول:

(١) وبعد القرن الخامس عشر تسرب بعض العرب والمسلمين من المغرب وأواسط بلاد السودان، وهو يمثل الطريق الثالث الذي دخلت منه بعض المؤثرات الإسلامية والعربية إلى السودان الشرقي.

(٢) للتوسع في موضوع انتشار العرب في السودان أنظر Yusuf Fadl Hasan, *Arabs*, 42 - 132.

(٣)إختلط بنو الكنز إختلاطاً تاماً بالنوبة، حتى صاروا جزءاً منهم، ويعرفون اليوم بالكنوز، وتقع ديارهم في منطقة أسوان بمصر وفي بعض المدن السودانية.

(٤) المقريزي: **السلوك** ١ / القسم الثالث ٧٣٦-٧٣٧.

(٥) ابن الفرات: ٣٨/٨.

(٦) ابن خلدون: ٩٢٢/٥

(٧) ابن خلدون: ٥١٦/٢

(٨) القلقشندي:٨ / ٥ - ٦

(9) Yusuf Fadl Hasan, *Arabs*, 135-176.

(١٠) القلقشندي:١١٨/١١١/٨

(١١) اليعقوبي: ٣٣٥-٣٣٦

(١٢) المقريزي: **الخطط**، ٣ / ٢٦٣- ٢٦٤

(١٣) الدمشقي: ٢٨٦

(١٤) النويري: ٢٨ورقة ٢٥٩

(15) Arkell."Fung Origins", *S.N.R.*, XV (1932), 220-212.

(16)Yusuf Fadl Hasan, *Arabs*, 129 - 131.

(١٧) **طبقات ود ضيف الله**:٣٩ - ٤٠ .

(١٨) ابن خلدون:١٦/٢

الفصل الثاني

العبد اللاَّب

١. العبدالـلاَّب وسقوط مملكة علوة :

كان من المتفق عليه حتى عهد قريب أن سقوط سوبا قد تم نتيجة اتفاق ثنائي بين العرب والفونج أو بين عبد اللَّه جمَّاع وعمارة دونقس.[١] وعلى إثر هذا الاتفاق قام ما يسميه البعض بالحلف السنَّاري الذي ظل يحكم الجزء الشمالي من السودان الشرقي بين ١٥٠٤ و ١٨٢١م. ولكن ترجح بعض الدراسات الحديثة التي ابتدرها الدكتور ب. م. هولت أن سقوط علوة تم على أيدي قبائل عربية بقيادة عبد اللَّه جمَّاع[٢] وهذا الرأي رغم ما به من ثغرات يستحق الاهتمام والدراسة المتأنية.

وفي رأيي أن الخلاف بين الرأيين يرجع أساساً إلي محاولة أقدم رواية سودانية خطية وهي رواية أحمد كاتب الشونة أو تاريخ الفونج[٣] التوفيق بين الروايات الشفاهية المتداولة جيلاً بعد جيل والتي تؤكد دور العرب في محاربة العنج، اسم إحدى القبائل التي كانت تسكن مملكة علوة، والتي أطلقها العرب على كافة سكان تلك المملكة، وبين واقع الأمر ممثلاً في الحلف الفنجاوي العبدالـلاَّبي الذي يعطي الفونج الكلمة الأولي في إدارة مملكة الفونج ويعطي العبدالـلاَّب مكانة مرموقة، ولكن دون الإشارة إلى الهزيمة التي لحقت بهم على أيدي الفونج في أربجي في أوائل القرن السادس عشر .

ومفتاح هذا التناقض يوجد في أقدم إشارة للعبدالـلاَّب وهي رواية الرحالة الأسكتلندي جيمز بروس الذي زار سنَّار، حاضرة مملكة الفونج، سنة ١٧٧٢م والذي استقى معلوماته من أحمد سيد القوم أحد كبار شخصيات البلاط الفنجاوي. ورغم أن كتابات بروس لا تخلو من عدم الدقة في جملتها فإن قدمها ورواجها في بلاط الفونج يعطيانها وضعاً خاصاً.

أ. يقول بروس في معرض حديثه عن أصل الفونج وتاريخ مملكتهم: "إن أمير

هذه البلاد من بني قريش ويلقب بود عجيب... وهو زعيم العرب بأسرهم، وكان يجبي منهم من الضرائب ما يكفيه للمحافظة على سلطته ونفوذه، وما يمكِّنه من استتباب الأمن وتنفيذ قوانينه في المسائل العامة... ومقر الأمير في قرِّي... وكان لهذا الزعيم العربي جيش كبير من الفرسان يساعده على جمع الضرائب... واستمر حال الحكومة هكذا في هذه البلاد الشاسعة والتي تمتد من حدود مصر حتى حدود الحبشة، حتى بداية القرن السادس عشر".

وفي سنة ١٥٠٤م توجهت أمة من السود، لم تكن معروفة من قبل وكانت تسكن على الشواطئ الغربية للنيل الأبيض على خط عرض ١٣ْ شمال، في مجموعة كبيرة من الزوارق أو المراكب في غارة على مديريات العرب وفي معركة بالقرب من أربجي هزموا ود عجيب [٤] وأرغموه على التسليم بشروط أملوها. وهي أن يدفع العرب للفاتحين نصف ما يملكون من ماشية في مبدأ الأمر ومن بعده سنة تلو أخرى، وعلى هذه الشروط يتمتع العرب بسيادتهم على ممتلكاتهم السابقة دون مضايقة، وأن يحتفظ ود عجيب بمكانته واعتباره، على أن يظل دائماً على استعداد تام لاستعمال القوة لإرغام العرب البعيدين في حالة رفضهم لدفع الضرائب المفروضة عليهم، ومن ثم صار ود عجيب مندوباً عنهم. وهذا الشعب الأسود يعرف في بلاده بالشلك... ونقلوا مقر حكم ود عجيب إلى أربجي ليكون تحت مراقبتهم المباشرة. [٥]

يؤكد نص بروس هذا حقيقتين هامتين الأولى، أن العرب كانوا يسيطرون بزعامة ود عجيب على بلاد النوبة ومملكة علوة يساعدهم في ذلك طائفة من مشايخ القبائل.[٦] الثانية أن الفونج قد هزموهم في معركة أربجي سنة ١٥٠٤م ومن ذلك الحين صار العبداللاَّب ينوبون عن الفونج في حكم الجزء الواقع شمال أربجي.

ب. ونجد تأييداً لتغلب العرب على تلك المنطقة في الأخبار التي جمعها كونيق (Koenig) عن تاريخ كردفان ودارفور في أوائل القرن التاسع عشر والتي

يرجع أصل بعضها الى مخطوطات ترجع للقرن الخامس عشر: "تقول بعض الروايات إن سلاطين دارفور قد فقدوا سيطرتهم على كردفان منذ أمد، وعند غزو أحمد المعقور كانت تلك المديرية تحت ظل الإسلام وتابعة لممتلكات ود عجيب الكافولي [الكافوته]الذي كان يحكم كل المنطقة الواقعة بين دنقلا العجوز وسواكن التي يسكنها عرب الحداربة ومنطقة جبال الوثنيين في الجنوب أي جبال النوبة".

"وفي سنة ١٤٧٤م [كذا] عند موت عجيب الكافوته، الذي ما زالت قبته موجوده في قرِّي، قام عمارة "دنكيس "أبو نايل Amara Dinkis Abou Nail أول سلاطين سنار ومن شعب الفونج، مستغلاً الخلاف الذي نشب بين العرب الرحل الذين ينتشرون في السهول وقاطني الجبال الذين يكونون معظم سكان كردفان فغزا تلك المديرية وأضافها إلى مملكته".(٧)

هذه الرواية رغم حداثة تسجيلها (١٨٢٩م) وما تدعيه من أن عجيب الكافوتة قد مات في عام ١٤٧٤م، وهو تاريخ متقدم جداً، يجب أن نأخذها بحذر، إلا أن تسجيلها في كردفان وهي منطقة بعيدة عن نفوذ العبداللاَّب والفونج التقليدي يعطيها بعض الاعتبار. ومهما كانت قيمتها فإنها توضح أن العبداللاَّب كانوا أسبق في حكم تلك البلاد من الفونج.

ج. ونجد الروايات التي تعزو سقوط مملكة سوبا إلى جهد مشترك بين الفونج والعبداللاَّب متداولة في المنطقة الواقعة بين أربجي وقرِّي، التي كانت تخضع لنفوذ العبداللاَّب المباشر في عهد الفونج.(٨) وقد ذُكر هذا الأمر في ثلاث مجموعات من المصادر المختلفة هي **تاريخ ملوك سنَّار** و **مخطوطة تاريخ العبداللاَّب** والروايات الشفاهية التي جمعتها شعبة أبحاث السودان بجامعة الخرطوم حديثاً وسأتناولها بالدراسة على الترتيب آنف الذكر.

ذكر غزو سوبا في أكثر من صيغة في كتاب **تاريخ ملوك سنَّار** أو **مخطوطة كاتب الشونة** التي ألفها أحمد بن الحاج أبو على (١٧٨٤- ١٧٨٥م) وتوفى بعد

١٨٣٨م ونقحها أربعة من بعده هم عبد القادر ابن الزين المشهور بالزبير ود ضوَّه (١٨٢٦ -١٨٨٢م) وأحمد الحاج محمّد جنقال والشيخ إبراهيم بن عبد الدافع (١٨٠٠-١٨٨٢م) والشيخ الأمين الضرير (١٨١٥ - ١٨٨٥م).(٩)

د. جاء في واحدة من أقدم نسخ **مخطوطة كاتب الشونة** (نسخة القاهرة) والتي نشرها الأستاذ الشاطر بصيلي عبد الجليل:"فأول ملكهم مما تداول في ألسنة الخلق، أن ابتداء أمر الفنج كانوا بمحل يعرف بلولو .. ثم إنتقلوا إلى جبل مويه. فلما أراد الله إظهار أمره وتسليطهم على خلقه، وكان لهم بقر وفيها ثور فحل.. فجعل الثور يسري بالليل إلي غابة سنَّار ولم يكن بها عمارة وكانت تسكنها جارية تسمى سنَّار مقيمة على جرف وكان الثور يرعى في تلك الغابة فتبعوه فنزلوا من مويه. وقطع أشجارها الملك عمارة دونقس وهو أولهم، وصار ملكهم بها، بعد أن قاتل العنج مع عبد الله القريناتي القاسمي أبي عجيب الكافوتة، ورجع إليها وبقي بها ملكه فيها. وشَيَّخَ عبد الله المذكور في قرِّي".(١٠)

وتفصِّل كل من مخطوطة باريس ومخطوطة المتحف البريطاني التي درسها هولت، وما نشره نعوم شقير نقلاً عن الشيخ إبراهيم بن عبد الدافع، والنسخة التي حققها مكي شبيكة، تفصِّل كل واحدة منها طبيعة الحلف الذي أدى لسقوط سوبا. ولعل خير ما يوضح هذه النقطة هي مخطوطة باريس، وهي في الأغلب من تنقيح الشيخ الزبير ود ضوَّه، و تتفق الأخيرة مع مخطوطة المتحف البريطاني، ونسختي نعوم شقير ومكي شبيكة في أنها تشمل وصفاً دقيقاً لمدينة سوبا نقلاً عن ابن سليم الأسواني، وتمتاز عليهم بأنها تشمل نبذة طويلة عن دخول العرب السودان، نقلاً عن ابن سليم الأسواني أيضاً، ولأهمية ما جاء في تلك المخطوطة أرى نقل الجزء الموافق لما نحن بصدده جملة: "إن أول ملوك الفونج عمارة دونقس وابتداء أمره في أول الحال، كان جماعة مقيمين بمحل يعرف بلولو، أقاموا به مدة ولم يزالوا في زيادة الجموع ثم انتقلوا إلى جبل مويه المعروف واقاموا به مدة وبلغهم خبر أن جارية تسمى سنَّار مقيمة على شاطئ بحر النيل

فانتقلوا إليها وزادت جموعهم. واتفق عمارة المذكور مع عبدالله جمَّاع القريناتي من عربان القواسمة. وعبدالله المذكور هو والد الشيخ عجيب الكافوته جد أولاد عجيب، وتمت كلمتهم على محاربة النوبة وهم الفَنَجَ [العنج]ملوك سوبا وملوك قرِّي، فتوجه عمارة وعبدالله جمَّاع المذكوران بما معهما من الجيش وحاربوا الفنج [العنج]وقتلوهم وأخلوهم من سوبا، وتوجهوا إلى القرى فقتلوا ملكها ولما تم لهم النصر على النوبة واستولوا على محلاتهم اتفق رأي عمارة بأن يكون هو الملك عوضاً عن ملك علوة التي هي سوبا كونه هو الكبير، وأن عبدالله يكون في مكان ملك القري [كذا]. فعند ذلك توجه عمارة إلى سنَّار واختطها وذلك في سنة عشر بعد التسعمائة وجعلها كرسي مملكته، وأن عبدالله جمَّاع كذلك اختط مدينة قرِّي التي عند جبل الرويان بالشرق وجعلها كرسى مملكته أيضاً. وكان عمارة وعبد الله كالأخوين إلا أن رتبة عمارة أعلى ورتبة عبدالله دونه إذا كانا حاضرين فيكون المقدم، وإذا غاب عمارة فيكون عبد الله هو المقدم على الجميع ويعامل بما يعامل به عمارة. ولم تزل تلك العادة جارية بين سراريهم إلى انقضاء مملكتهم".(١١)

رغم اختلاف هذه النسخ في الأسلوب وبعض التفاصيل فإنها تتفق إلى درجة كبيرة في مضمونها خاصة في كيفية حكم البلاد ومن ثم سأركز على السمات المميزة لها.

هـ. قال الشيخ إبراهيم بن عبد الدافع: "وانتقل الفونج من جبال الجنوب إلى جبل مويه. وكان كبيرهم عمارة دونقس وفي جوارهم قبيلة عرب جهينة تعرف بالقواسمة وعليها شيخ شديد البأس يقال له عبد الله جمَّاع، فاتحد عمارة وعبد الله المذكوران على ضم كلمة المسلمين، ومحاربة النوبة ونزع الملك من أيدي العنج فحشدا الجيوش، وهاجما العنج في سوبا فقتلوهم شر قتلة وخربا سوبا ثم سارا إلى قرِّي فقتلا ملكها واستوليا على البلاد كلها وذلك سنة ٩١٠هـ". (١٢)

و. جاء في نسخة مكي شبيكة: "... ذكروا في التواريخ التي رأيتها أن أول من

تولى وملك من ملوك الفونج الملك عمارة دونقس .. وكان العنج قبله تغلبوا على النوبة وجعلوا مدينة سوبا مركز سلطنتهم". " ثم يعطي الكاتب وصفاً طويلاً لسوبا -نقلاً عن إبن سليم الأسواني، وحالة البلاد الدينية وانتشار الإسلام فيها، نقلاً عن طبقات ود ضيف اللَّه: "أعلم أن ابتداء عمارة دونقس في أول الأمر جمع له أشخاص وما زالوا في زيادة وهو مقيم بهم في جبل مويه.. حتى حضر عنده عبد اللَّه جمَّاع من عريان القواسمة.. وتمت كلمتهم على محاربة العنج ملوك سوبا وملوك الغرب (صوابها القري) فتوجه عمارة وعبد اللَّه جمَّاع بما معهم من الجيش وحاربوا ملوك سوبا وملك الغرب (القري) وانتصروا عليهم.. وأن عبد اللَّه جمَّاع يكون في مكان ملك الغرب (القري) واختط مدينة قرِّي الكائنة عند جبل الرويان".[١٣]

ز. تتفق نسخة المتحف البريطاني اتفاقاً شبه كامل مع نص شبيكة إلا أنها تستعمل كلمتي (ملوك القري) و(ملك القري) على التوالي بدلا من (ملوك الغرب) و (ملك الغرب). و(ملوك القري) هم ملوك المقرة وليس الغرب كما تبادر لبعض النساخ، أو قرِّي غير المعرفة بالألف واللام إذ أن تلك المدينة اختطها عبد اللَّه جمَّاع باتفاق سائر الروايات، ولم يعرف لها تاريخ قبل ذلك الأوان.[١٤]

يستدل من هذه النصوص أن المؤلف يستعمل كلمتي النوبة والعنج في شيء من عدم الدقة كأنهما مترادفتان، وحقيقة الأمر أن لكلمة النوبة في المصادر العربية معنىً محدداً وآخر عاماً. فنجد اليعقوبي الذي كتب في نحو سنة ٨٩٧م يطلقه على سكان مملكتي المقرة وعلوة، ويوافقه في ذلك المسعودي بينما يطلقه ابن سليم الأسواني على سكان المريس، الجزء الشمالي من المقرة دون سواهم. ثم استعمل العرب المهاجرون هذا اللفظ للدلالة على كل الشعوب، غير العربية والبجاوية، التي سيطر عليها الفونج، بينما أطلقت كلمة الأنج (أي العنج) وهذا رسمها في المصادر العربية **كنخبة الدهر**[١٥] على إحدى القبائل التي تسكن الجزيرة في عهد مملكة علوة. وعم انتشار هذا اللفظ حتى صار علماً على كل

الشعوب التي كانت تسكن السودان وخلفت آثاراً مهمة. ومع هذا كله فإن المرء ليجد فصلاً دقيقاً بين اللفظين في الروايات الشعبية إذ يطلق لفظ النوبة على عامة السكان، بينما تطلق كلمة العنج على سكان مملكة علوة عامة وملوك سوبا خاصة وهو ما تؤكده المخطوطات. فتقول **مخطوطة كاتب الشونة** "بعد أن قاتل العنج مع عبد اللّه القريناتي"وتروى نسخة باريس: "على محاربة النوبة، وهم العنج ملوك سوبا" وتذكر نسخة شبيكة: "وكان العنج قبله تغلبوا على النوبة.. وجعلوا مدينة سوبا مركز سلطنتهم.. وتمت كلمتهم على محاربة العنج ملوك سوبا".

فإذا أبعدنا الإضافات التي أدخلها منقحو **مخطوطة كاتب الشونة** على سائر النسخ (عدا مخطوطتي فيينا والقاهرة، أقدم نصين لها) نقلاً عن ابن سليم الأسواني نجد أنها تتفق في مضمونها في أن الفونج والعبداللاَّب قد اتفقا على مقاتلة العنج ملوك سوبا ويدخل في ذلك ضمناً شعوبهم من النوبة. ولا أرى غضاضة في أن يكون العنج قد تغلبوا على النوبة كما جاء في نسخة شبيكة. إلا أن النُسخ المنقحة تبرز صعوبة أخرى وهي كيف يتسنى للفونج والعبداللاَّب هزيمة (ملك القرى) أي المقرة مع أن تلك المملكة قد سقطت في أيدي العرب في سنة ١٣٢٣م. واتفق مع البروفسير هولت في أن محاولة ربط ما نقل عن ابن سليم الأسواني (٩٦٩م) كأنه حدث في القرن الخامس عشر مع ما جاء في **مخطوطة كاتب الشونة** قد أوقعهم في سوء فهم لما ورد في **خطط** المقريزي وترتب عليه خطأ جسيم .

أما مخطوطة تاريخ العبداللاَّب فقد وصلتنا في نسختين من تأليف عبد اللّه بن الأرباب الحسن بن شاور بن عجيب بن أُونسة بن الشيخ شمام بن عجيب الثالث من أسرة العبداللاَّب، وكان والده كاتباً في حكمدارية غردون باشا. وتعتمد النسختان على روايات شفوية لا تبعد كثيراً عن مضمون الأخبار التي جاءت في تاريخ ملوك سنَّار. وورد في أقدم الوثيقتين وترجع إلى سنة

١٩١٥م[١٦]أن المؤلف سمع ما بها من المتقدمين كأبيه وجده وغيرهما. وذكر في الوثيقة الثانية (التي يرجع تاريخها إلى سنة (١٩٣٥م) [١٧] أن المؤلف اعتمد على روايات والده الذي كان صديقاً للشيخ إبراهيم عبد الدافع، أحد منقحي **مخطوطة كاتب الشونة**، وغيره من العبداللاَّب.[١٨]

ح. ويهمنا من الوثيقة الأولي قولتها: "إن الشيخ عبد اللَّه جمَّاع هذا الشهير بالقرين هو الذي كان وزيراً لملك العنج بمدينة قرِّى مدة ملكهم لأنه كان ريس عموم قبائل العرب بالسودان. ولما تطاولت جنود العنج على ظلم العرب بالمرات العديدة اتفق مع أبناء عمه فحول العباسيين بإزالة ملك هذا الظالم، وانعقد إجماع الجميع مع ساير العرب على هذا الأمر وعاهدوه على حرب ملك العنج وبذلك لقب بعبد اللَّه جمَّاع لأنه جمع القبائل على هذه الحرب مع الملك عمارة دونقس الأموي المقيم بجبل مويه، وبعدها جمع الجيوش العربية ودالات الحرب بين عبد اللَّه جمَّاع وبين ملك العنج المقيم بقرِّي. وكانت جيوش الفريقين كثيرة لا تكاد تحصر بالعد وقيل أن الشيخ عبد اللَّه كانت جيوشه تبلغ بالعد سبعين ألف ٧٠,٠٠٠مقاتل. ووقعت بين الفريقين حرابات عديدة حتى قتل ملك العنج بقرِّي واستولى على ملكها عبد اللَّه جمَّاع وأسس ممالك تحت رياسة أبناء عمه العباسيين كما هو معلوماً لأهل التواريخ وأخذ من خزائنه أموالاً جزيلة كمثل فضة وذهب وجواهر وعقد اسمه عقد الهيكل أصله من ذهب مرصع بالجواهر واليواقيت وتاج ملكه المرصع أيضاً بالجواهر واليواقيت وأن العقد والتاج المذكورين كانوا يتوارثونه [كذا]ملوك العبداللاَّب إلى زمن أحمد باشا أبو أدان الوزير بالسودان من الوالي محمد على باشا الخديوي ... (الذي) أخذهما وأرسلهما للسلطنة العثمانية".[١٩]

ط. وجاء في الوثيقة الثانية المسماة **بواضح البيان في ملوك العرب والسودان**: "الشيخ عبد اللَّه جمَّاع بن الشيخ محمد الباقر ولقب بجمَّاع لجمعه القبائل وهو من أشرف بيوت العرب في السودان وكانت الرئاسة والسيادة

لأجداده... فاستطاع لما أوتى من الرأي السديد والغيرة الدينية استمالة جميع قبائل العرب الموجودة بالسودان وتوحيد كلمتهم تحت سلطان يدير شئونهم... وينقذهم من العنف الشديد الذي أحاط بهم من ملوك العنج وصار يفتح مدائنهم الواحدة بعد الأخرى. ثم رأى أنه من الأوفق أن يتعاهد مع ملك الفونج المسمى عمارة دونقس المقيم بجبال النوبة بجهة لول، وتعاهدا على أن يمده الفونج بنجدة من عساكره، وتجهز بجيوش جبارة من العرب وتقدم لحرب العنج بهذا الجيش العظيم، وجالدهم في عدة وقائع يطول شرحها حتى انتصر عليهم، وفتح البلاد من أي جهة في الشمال إلى سوبا وقتل ملكهم المسمى علوة [كذا]. وكان ملك العنج قائد عظيم يسمى حسب اللَّه ففر ببقية الجيش إلى قرِّي التي بها سور عظيم في الجبال فتحصن به ثم لحقه عبد اللَّه جمَّاع وحاصره حتى سلَّم، وبعد ذلك خضعت له جميع بلاد السودان إلى جهة البجة من شواطئ البحر الأحمر التي فتحها ابنه الشيخ عجيب بعده. واستحوذ على غنائم كثيرة منها تاج الملك المرصع بالجواهر وعقد الهيكل المفصَّل بالدر والياقوت الذي صار يتوارثه العبداللاَّب إلى أن استلمه أحمد باشا(٢٠) والي السودان الأول من الشيخ إدريس ناصر، من الآلات الموسيقية الأزمار والشراتي والدنقر. ثم اقتسما الملك فكانت الجزيرة فقط لعمارة دونقس الذي انتقل من الجنوب، أي من جبال الفونج مقر مملكته واختط سنَّار عاصمة له وجميع أجزاء السودان الأخرى للشيخ عبد اللَّه جمَّاع فاختار مدينة قرِّي عاصمة لمملكته الشاسعة.. وملك عبد اللَّه جمَّاع ستين سنة وتوفى في أوائل القرن التاسع". (٢١)

ورغم حداثة هذه الروايات فإنها تمثل وجهة نظر العبداللاَّب أكثر من غيرها، وتتفق مع صيغ **مخطوطة كاتب الشونة** المختلفة في أن الفونج والعبداللاَّب قد اتفقا على حرب العنج، وتهمل الوثيقة الأولى أمر إقتسام إدارة المملكة بينهما. ويظهر جلياً من هاتين المخطوطتين، وغيرهما من الروايات الشفاهية التي سأتعرض لها فيما يلي، أن عبد اللَّه جمَّاع زعيم القبائل العربية

(بل وزير ملك العنج حسب منطوق إحدى الروايات) قد أخذ بزمام المبادرة لمّا تطاول جنود العنج وكثر جورهم فجمع القبائل العربية ووحد بينها لحرب العنج. ثم اتفق مع عمارة دونقس أن يمده بعون عسكري في تلك الحرب، وبعد حرب طاحنة انتصر عبد اللّه جمّاع على العنج. وتدل هاتان المخطوطتان أن عدد العرب الذين استقروا بمملكة علوة كان كبيراً للحد الذي يجعلهم يفكرون في التخلص مما لحق بهم من ظلم. كما توضحان أن العبدللاّب قد ورثوا عقد الهيكل والتاج عن ملوك العنج وظلوا يحتفظون بشارات الملك هذه حتى أوائل العهد التركي المصري.

تعكس الروايات التي جمعتها شعبة أبحاث السودان نفس التأرجح بين الجهد المشترك للفونج والعبدللاّب وبين جهد العبدللاّب المنفرد ولكن في شيء من التفاصيل والتباين[٢٢] وسأكتفي بذكر ثلاثة أمثلة لذلك.

ي. تشير الرواية الأولي إلي أن عبد اللّه جمّاع قدم على رأس قبائل جهينة من الشرق (أي الحجاز) إلى السودان ووجد عمارة دونقس زعيماً على مملكة النوبة المسيحية ونجح في إقناعه بإعتناق الدين الإسلامي لأن البلاد لا تحتمل دينين. فلما أعلن إسلامه قاتلا العنج والفونج (والنوبة المسيحيين) وانتصرا عليهم.[٢٣] وهذه الرواية تخلط بين ملك علوة وملك الفونج وتجعل الإسلام كالروايتين التاليتين هو القوة المحركة.

ك. وتقول الرواية الثانية إن عبد اللّه جمّاع حضر إلى السودان مع بعض المحاربين وأخذ يحارب سكانه مبتدئاً بدنقلا، وجد العنج في طريقه فانتصر عليهم وسار حتى بلغ النيل الأبيض وهناك تسامع الفونج بمقدمه فحضروا إلى سنّار فطلب عبد اللّه جمّاع منهم أن يختاروا بين الإسلام والحرب فأسلموا. ثم إشتركا في حكم البلاد. وتبيِّن هذه الرواية وغيرها من الروايات أن سقوط علوة كان على يد العرب دون سواهم. [٢٤]

ل. وتوضح الرواية الثالثة أن عبداللّه جمّاع جاء عن طريق أبي حمد ثم

استقر في موضع يعرف بـ أب (أبي) زليق بالقرب من قرِّى وأخذ عبد اللّه يتردد على ملكها الجحمان ثم تزوج ابنته أم كجيل. ولكن عبد اللّه لم يهتم بأمر زوجه أو مالها، بل اشتغل بما رأى من سلاح وعتاد عند الملك. وأخيراً قتل الملك واستولى على عرشه في رواية، وفي رواية أخرى أن الملك هرب خوفاً من بطشه فآل إليه الأمر. ثم ذهب عبد اللّه إلى ملك الفونج واتفقا على حرب ملك سوبا وقضيا على المسيحية.[٢٥] وزواج عبد اللّه جمَّاع من ابنة الملك الجحمان ملك قرِّي، رغم تشككنا في وجود مدينة بذلك الإسم قبل قيام سلطنة العبداللاَّب، وعدم إنتقال السلطة سلمياً، له في تاريخ العلاقات بين العرب والنوبة ما يؤيده، ومن ذلك كيف أن المهاجرين من أبناء العرب ورثوا أماكن السلطة والقيادة عن أمهاتهم من بنات الملوك.

م. وتزعم الرواية الرابعة أن الفونج تزوجوا بنات الشيخ عجيب (ثاني ملوك العبداللاَّب) في عهد عمارة دونقس وهكذا استولي على الحكم ومن بعدها أصابهم شيء من الضعف ولكنهم بقوا في السلطة مع الفونج: الملك عند الفونج والإمارة عند العبداللاَّب.[٢٦] وتكاد هذه الرواية تقترب من الحقيقة عندما تذكر صراحة أن العبداللاَّب قد أصابهم شيء من الضعف حتى سيطر عليهم الفونج.

نستنتج من المصادر الخطية ومن الروايات الشفاهية التي استعرضناها أن طبيعة الهجرة العربية في القرن الرابع عشر والدور الذي لعبته جهينة في تلك الهجرة ونظام الوراثة السائد بين النوبة عن طريق الأمهات والمناخ السياسي العام يؤكد ما ذهب إليه بروس الرواية "أ" من أن العرب كانوا يحكمون سودان وادي النيل عند ظهور الفونج. ويؤيد هذا القول رواية كونيق الرواية "ب" وبعض روايات العبداللاَّب الخطية والشفاهية.

وقد جاء التناقض عندما لجأ العبداللاَّب والمؤرخون لتبرير خضوع العبداللاَّب لسيطرة الفونج حتى لا يذكروا صراحة الهزيمة التي لحقت بهم في أوائل القرن السادس عشر.

تشكك آركل[٢٧] في أسطورة الغزو المشترك هذه وانتقد ما جاء في **تاريخ ملوك سنَّار** من أن العرب والفونج تجمعوا عند جبل مويه. وأضاف أن قلة المياه في ذلك الموضع وبعده عن سوبا ووجوب عبور النيل الأزرق للوصول إليه تجعل هذه الرواية غير مناسبة. ويرى هولت[٢٨] أن ثمة خطأ قد نشأ من تشابه معنى كلمتي جبل الرويان وجبل مويه ولذا يرجح أن جبل الرويان هو مكان التجمع الذي انقض منه العرب على ما تبقى من مملكة علوة. وجبل الرويان مثل قرِّي، كان موقعاً استراتيجياً مانعاً تسهل منه السيطرة على تحركات البدو عبر أرض البطانة إلى حوض النيل أو عبره إلى صحراء بيوضة. وفوق ذلك كله فإن مقومات المدن المندثرة سواء أكانت جغرافية أم سياسية أم اقتصادية كثيراً ما تنتقل إلى المعسكرات التي نشأت بالقرب منها ثم انقضت عليها، فتعمر مستفيدة من مقومات المدن التي تم إسقاطها وخير مثل لذلك قصة أم درمان مع الخرطوم.[٢٩]

٢. مملكة العبداللاّب:

تجمع أخبار العبداللاّب أنهم من أصل عربي صريح، فيقول بروس أنهم من قريش[٣٠] ويروي بعضهم أنهم من الأشراف فتذكر مخطوطة باريس "د"[٣١] أن عبدالله جمَّاع القريناتي من (عربان القواسمة)، وترجع رواية الشيخ إبراهيم عبدالدافع "هـ"[٣٢] القواسمة إلى جهينة، وتنسب أقدم مخطوطة عبداللاّبية "ح " عبدالله القرين إلى بطن من قبيلة رفاعة من جهة أمه وإلى الأشراف الحسينية من جهة أبيه؛ إلا أن الراوي يستدرك فيؤكد: "والصحيح في نسبه أنه من بني العباس من ذرية أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي".[٣٣] ولا تخرج روايات شعبة أبحاث السودان عن هذا المضمون إلا أنها تكثر من التفاصيل فتربط بعض الروايات عبد الله بالحسين بن علي بن أبى طالب،[٣٤] وتقول رواية أخرى إنه شريف من جهة أبيه وجهني من جهة أمه: "فإن جده الأكبر السيد الباقر تزوج بنت الشيخ عبد الله أب جهنة، أو الجهني زعيم قبيلة جهينة ورزق منها بالسيد رافع الذي أنجب عبدالله جمَّاع". فلما مات عبد الله الجهني اختارت القبيلة رافعاً زعيماً لها، ومن بعده آل الأمر إلى عبد الله جمَّاع، إلا أن رواية أخرى ترجح أن محمّد الباقر هو والد عبد الله وإن أمه بنت رافع، جد رفاعة. ولذا تتحدث هذه الرواية عن الرفاعية أخوال عبد الله.[٣٥]

نستنتج من هذه الروايات أن أحد المهاجرين العرب ممن يدّعون النسب الشريف تزوج في مجموعة قبائل جهينة أو رفاعة التي كانت تسكن السودان، واستطاع أحد أبنائه أو حفدته أن يصبح زعيماً لتلك القبيلة. ولعل الاختلاف الأساسي (عدا التفسير الذي تقدمه آخر رواية، إذ تجمع بين النسب الشريف والجهني والرفاعي) هو التأرجح بين قبيلتي جهينة ورفاعة.

وسبب هذا التأرجح أن النسَّابة السودانيين يطلقون لفظ جهينة في شيء من عدم الدقة على القبائل البدوية التي دخلت السودان ولا ترجع بنسبها إلى بني

العباس أو المجموعة الجعلية.

تحت لواء هذه المجموعة الجهنية تنضوي كثير من القبائل التي لا تربطها بجهينة القبيلة اليمانية أدنى صلة مثل رفاعة وفزارة والكواهلة وغيرهم. ولعل سبب الربط بين هذه المجموعات القبلية أن جهينة قد قامت بدور قيادي عند هجرة العرب إلى السودان ومن ثم بسطت لواءها على كثير من البدو. وفي واقع الأمر أن أجداد رفاعة كانوا يعيشون بالقرب من أجداد جهينة في كل من الحجاز وصعيد مصر وبلاد البجة، كما أن الطريق الذي سلكته جهينة إلى السودان يؤكد قدم هذه الصلة.(٣٦) ولابد أن يؤدي هذا الجوار الطويل إلى تزاوج وتحالف بين المجموعتين. وليس في رأيي ثمَّ خلاف جوهري بين الأصل الرفاعي والجهني إذ أن الأول يُكَوِن جزءاً من الثاني في المعنى العام، وإذا أردنا الدقة فإن العبداللاَّب من القواسمة وهم بطن من رفاعة كما تؤيد أشجار النسب عامة، وأن رفاعة تكون واحدة من المجموعة الجهنية.

أما عن الأسماء التي تواترت في هذه الروايات فليس لدينا ما نراجعه بها سوى أنه ليست هناك أي صلة مباشرة بين جهينة وعبداللَّه بن يونس الجهني الصحابي الجليل، إلا تلك الصلة التي تربط قبيلته وقبيلة جهينة بقُضاعة. وفي رأيي أن ورود هذا الاسم في أخبار العبداللاَّب إنما هو صدى لمحاولة النسَّابة ربط القبائل السودانية بأصل شريف أو بشخصيات إسلامية ممن اشتهروا في صدر الإسلام.

وفي انتساب العبداللاَّب إلى الأشراف، ما يعيد إلى الأذهان ظاهرة إدعاء النسب الشريف بين أغلب الأسر الدينية السودانية. ولعلنا نجد في تواتر ما ترويه الأخبار عن اهتمام عبد اللَّه جمَّاع بنشر الإسلام عند محاربة العنج ما يوحي بأن نواة تلك الأسرة كانت تجمع بين الزعامة القبلية والدينية. وقد استمرت هذه الروح الدينية وهذا النشاط الدعوِّي في مجهودات ابنه عجيب الكافوته الذي اهتم بتعيين القضاة وبتشجيع الفقهاء ورجال الطرق الصوفية

بإغداق المال عليهم حتى لقب بال:"ولي السلطان" وصارت قبته مزاراً يقصده المريدون. ومما قيل فيه شعراً:

مُنُو ركَّاب العَواتى وهزَّاز السيوف الَحَدْ
غير الشيخْ عَجِيب الفَتّحْ دّرُوب الحَجْس
شَريفي أصيلْ ونَشَر الشريعةْ عَدِيلْ
منو الطيّع الناس الإيمانَ باقي قليلْ
غير الشيخْ عجْيب ركَّاب عَوَاتي الخيلْ
وينو القَلْبوٌ ثَابتْ وبي اليقين مليانْ
منو الْشّوفْتو تَلّوِعْ الفِرسانْ
غير الشيخ عجيب النَّادِر ولي وسلطانْ.(٣٧)

يلاحظ أن المصادر الخطية لا تذكر شيئاً عن الطريق الذي سلكه أجداد العبداللاَّب أو جهينة عند دخولهم السودان. ولكن يتضح من روايات العبداللاَّب السماعية أن أجدادهم قدموا من ثلاثة طرق: الأول محاذٍ لنهر النيل عن طريق دنقلا، والثاني عبر صحراء العتمور عن طريق أبي حمد، والثالث من الحجاز عن طريق سواكن. ومن دروب الصحراء الشرقية تدفقت جهينة إلى أرض المعدن وشاركت هي ورفاعة البجة موطنها، ثم تشاجرتا في صحراء عيذاب في عام ١٢٨١م. وعن طريق نهر النيل صاحبت جهينة الجيوش المملوكية التي غزت بلاد النوبة وتكاثرت بطونها وحلفاؤها بين صعيد مصر وحدود الحبشة حتى غلبوا النوبة، ثم تغلبوا على علوة في نحو أواسط القرن الخامس عشر.

وليس لدينا ما نستأنس به في ترجيح هذا التاريخ سوى النذر اليسير من الإشارات غير المعتمدة. يزعم أن عبداللَّه جمَّاع تزوج عائشة بنت الشريف حمد أبو دنانة الذي استقر في سقادي الغرب بالقرب من المحمية في سنة ١٤٤٥م

ومنهـا رزق بـابنه عـجـيب الكافـوتـة الذي عـمـر طويلاً.[٣٨] وذكـر فـي أحـدث مخطوطتي العبداللاَّب أن عبد اللَّه جمَّاع حكم نحو ستين سنة وأنه قد مات في أوائل القرن التـاسـع الهجري - ولا شك أن هذا تقدير يبعده كثيـراً عن وقت حربه مع عمارة دونقس في أوائل القرن السادس عشر، ولعل الكاتب قصد أوائل المائة التاسعة.[٣٩] وجاء في أخبار الفور التي جمعها (كونيق) أن أحمد المعقور لما بسط نفـوذه على بلاد الفـور في نحـو سنة ١٤٤٥م كـانت كـردفـان تحت سـيطرة العبداللاَّب.[٤٠] ومهما يكن من أمر فإنه ما أن استتب الأمر للعبداللاَّب ووطدوا أسـاس ملكهم حـتى اشـتبكوا مع الفـونج ربمـا حـول حـقـول المرعى في الجـزء الجنوبي من الجزيرة وانتهى الصراع بهزيمة العبداللاَّب وقبولهم مبدأ التعاون مع الفونج في إدارة شئون الجزء الشمالي من البلاد وذلك في بداية القرن السادس عشر.

تقف ندرة الأخبار عن هذه الفترة المبكرة من حكم العبداللاَّب حجر عثرة دون رسم صورة متكاملة لنظام الحكم. ويبين اتخاذ قرِّى حاضرة للمملكة الجديدة أهمية القبائل العربية في إنشاء الدولة الجديدة وتدعيمها. فعند جبل الرويان الواقع شرق قرِّي، تجمعت القبائل العربية التي هزمت آخر ملوك علوة، ومن قرِّي التي تقع على حافة منطقة الأمطار الاستوائية الغزيرة والتي يلجأ إليها البدو بماشيتهم في فصل الخريف، تمكن العبداللاَّب من السيطرة على عربان البطانة وفرضوا عليهم الإتاوات التي تمكنهم من دفع نفقات إدارة البلاد. ومنها سيطروا على الطرق التجارية (أو درب الجمل) الذي كان يسير متابعاً لحوض النيل شمالاً وجنوباً ويتفرع منه شرقاً إلى سواكن. ومن غرب قرِّي يسير طريق آخر عبر صحراء بيوضة إلى مصر وكان للعلاقات التجارية بين مصر والسودان أهمية خاصة مما حدا ببروس أن يستنتج أن مملكة العبداللاَّب كانت تابعة اسمياً لمصر.[٤١] ورغم أهمية الصلات التجارية بين البلدين فلم أجد ما يؤيد هذا الاستنتاج.

أما في المناطق التي انفتح فيها العرب على الوطنيين وصاهروهم وشاركوهم سبل العيش المحلية فقد ظهر نتاج جديد تغلب عليه الديانة الإسلامية واللغة العربية ثقافياً. وتمكن العرب، سياسياً، عن طريق الوراثة أن يبلغوا مواطن السلطة ويكونوا عدداً من الزعامات لا تختلف في جوهرها عن إمارة بني الكنز. ويبدو لي أن العبداللاَّب قد استقطبوا هؤلاء الزعماء في حربهم ضد العنج، فلما انتصروا كما أرادوا أبقوا على تلك الزعامات. وظلت العلاقات التي تربطهم بملك العبداللاَّب الذي يبارك تعيينهم لا تختلف عن الصلة التي تربط بين شيوخ البطون وزعيم القبيلة الأكبر. وهذه الزعامات المحلية تعكس التجمعات القبلية الكبيرة مثل الجعليين والميرفاب والشايقية والحكماب التي اقترنت بأسماء مكوك[٤٢] أو ملوك محليين. وهذا يؤكد ما ذهب إليه بروس عندما قال أن عدداً من مشايخ القبائل كان يساعد العبداللاَّب في حكم البلاد.

وتتضح الصورة أكثر من النظام الذي كان سائداً في عهد الشيخ عجيب المانْجُلُك عندما عين عدداً من المشايخ على قبائلهم وأغدق عليهم الطواقي (جمع طاقية) وهي شارات الملك. فمنهم مشايخ أو مكوك الحمدة والجموعية والسعداب والميرفاب والرباطاب والشايقية وأرقو، وكلهم على نهر النيل، والغديات في كردفان، والحمران والنابتاب والحلنقة والكميلاب وغيرهم بمنطقة الشرق.[٤٣]

عند بداية القرن السادس عشر، وبعد هزيمة العبداللاَّب على يد الفونج، انتهى الكيان السياسي المستقل لدولة العبداللاَّب التي كان قيامها تعبيراً وتأكيداً لغلبة الثقافة العربية الإسلامية على الجزء الأوسط من سودان وادي النيل. وفي إطار مملكة الفونج الإسلامية ظل العبداللاَّب يحكمون الجزء الشمالي من تلك المملكة ويرعون نشر الثقافة العربية الإسلامية.

هوامش الفصل الثاني

(١) **طبقات ود ضيف الله** : حاشية ١٠ ص ٤٠.

(2) Holt; " Sudanese Historical Legend: The Funj Conquest of Suba" *B.S.O.A.S*, XVIII (1960), 1-12.

(٣) **مخطوطة كاتب الشونة** ، تحقيق الشاطر بصيل عبد الجليل.

(٤) يستعمل بروس هنا الاسم الشائع في أيامه للدلالة على أجداد ود عجيب وأرجح أنه يعني عبد اللّه جمّاع أول ملوك العبدلاّب.

(5)Bruce, VI, 369-71.

(6) *Ibid*, VI, 370.

(7) De Cadalvene et de Breuvery, 1,200.

(٨)لم يذكر ود ضيف الله مؤلف أقدم كتاب سوداني شيئاً عن هذه النقطة بل اكتفى بقوله: "أعلم أن الفنج ملكت أرض النوبة وتغلبت عليها في أول القرن العاشر سنة عشرة بعد التسعمائة وخطت مدينة سنار خطاها الملك عمارة دونقس": **طبقات ود ضيف الله**، ص٣٩.

(٩) أرجع لتفاصيل أكثر عن حياة هؤلاء في مقالي " المصادر السودانية قبل المهدية"، **مجلة الدراسات السودانية**، المجلد الثالث - العدد الأول ،٣٦- ٧١

(١٠) **مخطوطة كاتب الشونة**، ٦ - ٧.

(١١) مخطوطة باريس، أنظر أيضاً **مخطوطة كاتب الشونة** ، ١٢٨ - ١٢٩.

(١٢) نعوم شقير ، ٧٣٦.

(١٣) مخطوطة المتحف البريطاني، ورقات (ب - ٣).

(١٤) **تاريخ ملوك سنار** ، ١-٢.

(١٥) نفس المصدر، ١ - ٢.

(١٦) اسمها : واضح البيان في ملوك العرب بالسودان .

(١٧) تشابه هذه المخطوطة ما نشره بن A.E.Penn, "Traditional Stories of the Abdallab Tribe", *S.N.R.*,XVII (1934) , 58, 82.

(١٨) ملوك العبدلاب، ٢ .

(١٩)المصدر السابق، ٢

(٢٠) هو الحكمدار أحمد باشا أبو ودان ١٨٣٥-١٨٤٣م

(٢١) واضح البيان، ١-٣

(٢٢) أنظر تفاصيل هذه الروايات في أحمد عبد الرحيم نصر: ١٤ - ٢٣

(٢٣) المصدر السابق ص ٥ - ١٦ أو الشريط رقم٢٣٠ (KVI) شعبة أبحاث السودان.

(٢٤) الشريط ٤٠٢ (KVI)شعبة أبحاث السودان.

(٢٥) الشريط ١،٢،٣،٧،١٠٠،.K VI

(٢٦) أحمد عبد الرحيم نصر ، ١٠.

(27)Arkell, " Fung Origins" *S.N.R.*, XV, 1932, 211-212.

(28) Holt " op. cit" *B.S.O.A.S.*, XXIII, 10.

(29) *Ibid*, *B.S.O.A.S.* XXIII, 11 - 12.

(30) Bruce, IV, 369.

(٣١) مخطوطة باريس، ٤ .

(٣٢) نعوم شقير، ٢٨٦.

(٣٣) ملوك العبدلاب، ٢ - ٣

(٣٤) أحمد عبد الرحيم نصر، ١٤ - ١٥ .

(٣٥) المصدر السابق: ١٤ - ١٥

(36)Yusuf Fadll Hasan, *Arabs*, 154-7, 186.

(٣٧)أحمد عبد الرحيم نصر ،) ١١٧-١١٨.

(38) Trimingham, *Sudan*, 196 - 223.

(٣٩) واضح البيان، ٢ ولا شك أن هذا المصدر قد أخطأ عندما زعم أن الشيخ عجيب مات في سنة ١٤٧٤م .

(40) De Cadalvene et de Breuvery, 1,200.

(٤١) واضح البيان، ٢ .

(٤٢) جمع مك، وهي تحريف لكلمة ملك، تطلق على مشايخ القبائل أو ملوكها وغيرهم من حكام الأقاليم في عهد سلطنة الفونج .

(٤٣) واضح البيان، ٢ .

الفصل الثالث

سلطنة الفونج

سلطنة الفونج

أ - أصل الفونج وموطنهم

ما أن هُزم العبداللاَّب على يد الفونج بقيادة زعيمهم السلطان عمارة دونقس في نحو سنة ١٥٠٤م حتى تمت للفونج السيطرة على الجزء الشمالي من السودان الشرقي، وأصبح نفوذهم يمتد من مدينة مشو بالقرب من الشلال الثالث حتى جنوب عاصمتهم سنَّار الواقعة على النيل الأزرق، ثم امتد ملكهم ليشمل أجزاء كبيرة من بلاد البجة في الشرق وكردفان في الغرب. وظل نفوذ الفونج في تضاؤل مستمر خاصة في الأطراف حتى انتهت مملكتهم بالفتح التركي المصري سنة ١٨٢١م.

ونظراً لما اكتنف ظهور الفونج من غموض، تارة لقلة المصادر الوطنية وأخرى لصمت المصادر العربية المعاصرة، فإن أصلهم ما زال يكَّون مشكلة رئيسية في تاريخ السودان. وقد شغل هذا الأمر بال الباحثين في فترات طوال دبجت خلالها كثير من المؤلفات وطرحت فيها كثير من النظريات، ولكن دون الوصول إلى رأي قاطع. وربما ظل الحال هكذا إلى أن تنال المنطقة الواقعة جنوب سنَّار، والتي يرجح كثير من الباحثين أنها مهد مملكة الفونج، قدراً أكبر من اهتمام علماء اللغات المقارنة والآثار. وعليه فإن ما أكتبه في هذه الصفحات التالية لا يعدو محاولة لإعادة النظر فيما كتب عن موطن الفونج وأصلهم وإبداء الرأي فيه.

يُرجعِ الباحثون موطن الفونج أو أصلهم إلى واحدة من ثلاث مناطق: بلاد الحبشة، وبلاد البرنو، ومنطقة الشلك على النيل الأبيض. ويلاحظ أن بلاد الحبشة تجد تفضيلاً في الروايات الوطنية وتواتراً عند النسّابة السودانيين الذين ينسبون الفونج إلى بني أمية، بينما تتفق بلاد الحبشة والبرنو في أنهما وقعتا تحت مؤثرات إسلامية قبل قيام مملكة الفونج.

كان أول من وصف هذا الشعب الغريب دون أن يسميه هو المغامر اليهودي داؤد روبيني الذي قدم من اليمن في طريقه إلى أوروبا. وكان يدعى النسب الشريف ويتظاهر بالإسلام. ومكث نحو عشرة أشهر من أواخر عام ١٥٢٢م وأوائل عام ١٥٢٣م في ضيافة ملك الفونج عمارة الذي وصفه داؤد بأنه مسلم أسود ويحكم شعباً من السود والبيض. ولعله قصد بالسود السكان الوطنيين وبالبيض العرب. وقضى روبيني معظم تلك الفترة في لمؤل Lam'ul أو لوءول Lua'ul، مقر الملك الواقع على النيل الأزرق وعلى بعد ثمانية أيام من سنّار. (١)

وكثيراً ما صحب روبيني الملك في تجواله لتفقد أحوال بلاده شهراً بعد شهر، وكان يساعد الملك في إدارة المملكة عدد كبير من الموظفين كما يساعده قادة الجيش وعدد من القضاة وحكام المدن. وذكر روبيني أن الملك يمتلك عدداً كبيراً من الخدم والرقيق ذكوراً وإناثاً ومعظمهم عراة الأجسام وأنهم يأكلون لحوم الأفيال والذئاب والفهود والكلاب والإبل والفئران والضفادع وحتى لحم البشر.(٢)

وبالرغم من زعم روبيني أن ستين فارساً من الأشراف كانوا يقفون على خدمته هو، فإن هذا العدد الكبير من الخدم والرقيق ربما يشير إلى غالبية جيش الملك أو مؤيديه. وإذا جاز لنا أن نصدق وصف روبيني لغذائهم فربما جاز لنا أن نستنتج بأنهم ليسوا مسلمين أو عرباً. ويضيف روبيني أن الملك يملك التبر وكثيراً من الخيل والإبل الصهب وقطعانا من الماشية. (٣)

يتضح من هذا الوصف أن رعايا الفونج كانوا في أول أمرهم رعاة يمتهنون تربية الماشية وهو وصف يتفق مع ما أشارت إليه أقدم صيّغ **مخطوطة كاتب الشونة**، في تكثيف روائي، عندما قالت أن لهم بقراً فيه ثور فحل وكان يتعدى ويرعى في غابة سنَّار.

ويبدو لي أن تواتر ذكر موضع لمؤل بصورة أو أخرى في أكثر من مصدر يمثل قرينة هامة لتحديد موطن الفونج: تذكر **مخطوطة كاتب الشونة** (ب) صراحة أن ابتداء أمر الفونج كان يعرف بلول، وجاء في صفحة ٨ (ب) أن "لول في الصعيد"

أي منطقة أعالي النيل الأزرق التي ظلوا بها "على قدر ما أراد الله إقامتهم بذلك المحل".

وتذكر فقرة أخرى أنهم كانوا يقيمون في "جيلي". وليس في هذين النصين ما يرجح أن كلاً من لول وجيلي تشيران إلى موضع واحد وربما قصد الراوي بجيلي جبل كيلي. (٤) الواقع على خطي عرض ٠٥, ١٠-٢٠, ٣٤ شرق والكائن جنوب غرب فازوغلي. (٥) ويشير نفس المصدر (ج) في موضع آخر عند حديثه عن السلوك السيئ الذي تردى فيه السلطان أُونسه بن بادي الأحمر (١٧١٥ - ١٧١٨): "فلما بلغ أهله الفونج ذلك، أرادوا عزله هم، وجنود لولو، وهم الذين يعزلوه ويولوا قبل ملك الهمج عليهم"...(٦) ويوحى هذا النص أن جنود لولو والفونج فئتان مختلفتان إلا أن نسخة أخرى من هذه المخطوطة تبيِّن أنهما فئة واحدة فتقول: "حتى بلغت أخباره إلى الفونج بالصعيد وهم جنود لولو".(٧)

وجاء هذا اللفظ في نقش على نقارة يزعم أنها نقارة الفونج الأصلية. والصواب أنها تعود إلى عهد السلطان بادي بن نول (١٧٢٤ - ١٧٦٢م)، وذكر فيه أن جد الفونج جاء إلى لول ونصه :

"نقارة الدار نقارة السلطان
عمارة بن السلطان عدلان
جدهم الكبير الجاء من لول
عمرها السلطان بادي بن السلطان نول
نصره الله آمين. (٨)

وذكر ذلك اللفظ في **مخطوطة أنساب العرب المبؤبين [كذا] بالسودان** للفقيه أحمد بن الفكي معروف، والتي ترجع إلى عام ١٨٦٠م أو أواخر عهد الفونج في معرض حديثه عن أصل الفونج " العمريون.. أبناء عمر (و) سليمان الأموي ويقال أنهم الآن السلطنة بالسودان. وقد تزاوجوا هم وأهل لولو، بلد من بلاد الهمج

حتى صار مثلهم في جميع الأحوال ويشتهرون بالفونج".(٩)

ويشير لفظ الهمج إلى السكان الوطنيين الذين يقطنون المنطقة الجبلية الواقعة غرب وجنوب فازوغلي وعرفت بدار الفونج بعد أن بسط الفونج نفوذهم عليها. من أشهر سكانها اليوم المابان، جُم جُم، البرتا، الأنقسنا، البرون والأدوك. ومركز بلاد الهمج هو جبل كيلي الذي جاء ذكره في **مخطوطة كاتب الشونة**. وحاول الأستاذ الشاطر بصيلي عبد الجليل أن يربط بين لمؤل روبيني ولول أو لولو الروايات السودانية بجزيرة لامو الواقعة على ساحل أفريقيا الشرقي جنوب الصومال والتي هاجرت إليها قبيلة فنج العربية. ولكن بعد المسافة بين البلدين ووعورة الطريق وعدم تطابق التواريخ ربما يبعد ذلك الموضع من الاعتبار. (١٠)

ويبدو لي أنه ربما كانت هناك ثمة صلة أو تطابق بين لمؤل - لول - لولو - وجبل أولو الواقع "على خطي عرض ٤٣, ١٠ ْشمال ٢٠, ٤٤ ْ شرق" غرب كيلي وجنوب قولي. وهو يقع على بعد نحو ثمانية ايام جنوب سنَّار في تقدير الأستاذ على أحمد على الذي طاف تلك المنطقة. (١١) ويروي البعض أن الأسرة الحاكمة أو الطبقة الأرستقراطية في كل من أولو وكيلي كانت من الفونج وأن قدومها إلى تلك المنطقة كان قبل العهد التركي، ولكني أرجح أن صلة الفونج بأولو قديمة وترجع إلى العهد الذي كانت تمثل فيه أولو المعسكر أو نقطة الأنطلاق التي أرتبطت بنشأة تلك المملكة. وقد فقدت أولو أهميتها السياسية بعد أن توطدت دعائم المملكة في الشمال واختط الفونج سنَّار العاصمة لهم. ولكنهم لم يهملوا موطنهم التقليدي. كما أن عادة القتل الطقسي بين تلك الأسر على نمط ما كان يعتقد، أنه سائد بين ملوك سنار وقيام "جنود لولو" بعزل السلطان إذا ما ارتكب ما يسئ إلي هيبة الملك، يؤكد ما ذهبنا إليه. (١٢)

وسواء صح تطابق أولو مع لمؤل - لول - أم لم يصح فإن جملة القرائن سالفة الذكر تشير إلى أن زحف الفونج نحو الشمال قد اقترن بموضع يحمل مثل هذا الاسم، وهو يقع في المنطقة الجبلية الواقعة جنوب غرب سنَّار. وقد ذكر بروس

صـراحـة أن المنطقـة الـواقـعـة بين النيلين الأزرق والأبيض وجنوب سنَّار وغـرب الحبشة مليئة بالذهب ورجح بأنها بلاد الفونج. (١٣) ومن قبله لاحظ روبيني كثرة التبر في ديار الملك عمارة وكيف أن الملكة ووصيفاتها وعامة الإماء كن يتزين بالحلي الذهبية وبها يسترن عوراتهن.

ومن لمؤل - لول - لولو - أو أولو اتجه الفونج شمالاً، بحثاً عن المرعى لماشيتهم حتى بلغوا جبل مويه الواقع على بعد عشرين ميلاً غرب سنَّار ومنها توجهوا إلى سنَّار فعمروها واتخذوها حاضرة لهم بعد أن كانت مجرد مقر لواحد من نواب عمارة وذلك في نحو عام ٩١٠ هـ / ١٥٠٤م. وما أن استقر بهم المقام حتى التحموا بالقبائل العربية الزاحفة من الشمال وتنافسوا على مراعى الجزيرة الغنية فتحاربوا عند أربجي وهزموا العبداللاَّب على النحو الذي أسلفناه.

ولا شك أن هذه الصورة الغامضة لموطن الفونج الأول لا تخلو من ثغرات وتساؤلات، ربما وضحت عند مناقشتنا الآراء المختلفة التي قيلت عن أصل الفونج البعيد.

١ . الأصل الأموي :

تجمع الروايات السودانية عامة، ومعظمها من وضع النسَّابة السودانيين، أن الفونج من سلالة بني أمية الذين هربوا من نير الدولة العباسية بعد أن سقطت دولتهم، وترجح هذه الروايات أنهم دخلوا السودان عن طريق الحبشة. ولا يختلف الفونج، في تمثيلهم للنسب العربي عن سائر المجموعات السودانية المستعربة والتي اعتنقت الدين الإسلامي. (١٤)

وقد ظهرت اقدم إشارة خطية إلى صلة الفونج بالأمويين في وثيقة ترجع إلى الربع الأول من القرن السابع عشر، بعثها السلطان محمد بادي عجيب (ولعله بادي سيد القوم) "إلى بني أمية الساكنين دار دنقلا" يوضح فيها أنه أموي مثلهم.(١٥) ويبدو أن الغرض من الرسالة هو إسكات الأصوات المعارضة في دنقلا

والتي تشككت في إدعاء الفونج للنسب العربي الأموي. إذ أن تاريخ هذه الوثيقة يوافق العهد الذي توترت فيه العلاقات بين الفونج والعبداللاَّب وساءت إلى أن اقتتل الطرفان في معركة كركوج حيث هزم العبداللاَّب (نحو سنة ١٦١١م) فهرب بعض زعمائهم إلى دنقلا، حيث أعلنوا رأيهم صريحاً في نسب الفونج، ولم تصف العلاقات بين العبداللاَّب إلاّ بعد وساطة الولي الشيخ إدريس ود الأرباب. (١٦)

ويتواتر الأصل الأموي كثيراً في أشجار النسب السودانية، وتروي واحدة منها، يزعم أن أصلها يرجع إلى القرن السادس عشر، أن الفونج من العمريين سلالة سليمان [كذا]ابن عبد اللَّه الملك الأموي الذي هرب من الشام إلى الحبشة خوفاً من بطش السفاح، وهناك تعقبه العباسيون حتى اضطروه للهجرة إلى السودان حيث تزوج سليمان بنت الملك وولد منها ولدين هما داؤد وأنس أو أودون وأُونسه كما يعرفان محلياً. (١٧) وليس في المصادر المعاصرة ما يؤيد هذه التفاصيل، إلا أن إبني مروان بن محمد، آخر خلفاء الدولة الأموية، وهما عبد اللَّه وعبيد اللَّه هربا في نحو ألفين من أتباعهما لبلاد النوبة بعد أن سقطت الدولة الأموية في سنة ٧٥٠م. ولم يسمح لهما ملك النوبة بالبقاء في بلاده خوفاً من إثارة حفيظة العباسيين عليه، فقررا العودة إلى الحجاز عن طريق باضع. وفي طريقهما عبر بلاد البجة، قتل عبد اللَّه في جماعة من أتباعه وعبر عبيد اللَّه البحر إلى الحجاز. ومن ثمّ فليس هناك ما يؤكد بقاء فئة منهم منذ ذلك التاريخ. (١٨) وتضيف رواية للسمرقندي أن ذرية أنس وداؤد تكاثرت بين السودان أو السود حتى صار من العسير التفريق بينهم. (١٩)

وتضيف رواية الفقيه أحمد بن الفكي معروف التي ذكرناها من قبل أن ذرية عمرو بن سليمان الأموي تصاهرت مع سكان لولو من بلاد الهمج "حتى صارت مثلهم في جميع الأحوال".(٢٠) وتذكر مخطوطة فيينا في إيجاز: "وقيل أنهم من بني أمية الذين هربوا من العباسيين أو من بني هلال".(٢١) وقد تشكك بروس في إدعاء ملك الفونج النسب إلى الدوحة الأموية الشريفة قائلاً: "إن تجعيد شعره

وفرطحة قسمات وجهه وسواده يدلان على انه من الشلك".[٢٢] ومع وجاهة ما أثاره بروس من تشكك فإننا نخطئ إذا ظننا أن عروبة المرء تقاس بشكله وبلون بشرته فقط.

وقد رأينا كيف أظهرت "أوراق النسب" أن الاختلاط كان كبيراً حتى ذاب الأصل العربي في الوطنيين ولم يعد هناك ما يميزهم عليهم. ولا شك أن العرب والشعوب المستعربة من سكان مملكة الفونج قد لاحظت وجود فرق عرقي بينهم وبني الفونج وتوفرت لهم من الأدلة ما حدا بود ضيف اللّٰه أن يتحدث في جلاء مميزاً بين ملوك الفونج وملوك العرب. [٢٣] وقد فطن بعض النسَّابة السودانيين لهذا الفرق ولم يوافقوا علي ما ذهبت إليه أغلبيتهم من أن الفونج من أصل أموي، بل آثروا أن يقرنوهم بشخصية أسطورية من بني هلال تعرف بحسن (الهلالي) بن هلال وهو ابن أمة سوداء. ويُفهم من صيغ هذه الروايات[٢٤] المضطربة أن حسناً هذا أنجب ولداً أسمه دوكة وهو جد الفونج وعدد من القبائل الوطنية مثل الشلك والدينكا وفُنُقُر وكيرا . [٢٥]

ويبدو لي أن الروايات الوطنية ممثلة في أشجار النسب تحمل نواة صادقة لذكرى صلة بين سكان جبال الفونج وبين العرب (أو المسلمين). وربما كان الفونج، وهو رأي أميل إلى ترجيحه، فئة من عرب جهينة الذين أشار إليهم ابن خلدون وقال أنهم بلغوا أطراف الحبشة. وينبغي ألا نبالغ في أهمية التفاصيل التي تتحدث عن الأصل الأموي أو الهلالي وأن نأخذ هذه الأخبار في حذر شديد إذ أنها تؤرخ لصدى صلة تعود الى القرن الثامن الميلادي، وحتى لوصدقت هذه الصلة فإن شدة الإختلاط بين العرب الوافدين والسود من الوطنيين محت كل ما يميز الأوائل عن الأواخر.

وارتبط الأصل الأموي للفونج بالحبشة أيضاً، فهناك شبه إجماع بين الروايات السودانية على أن أجداد الفونج من الأمويين قد اتخذوا من الحبشة موطناً لهم. ولفظ الحبشة كالسودان تعبير واسع المعنى يعصب تحديده سياسياً

وجغرافياً. ومن ثمَّ فليس في وسعنا أن نتحقق إن كانت منطقة أعالي النيل الأزرق التي إتفقنا على قبولها موطناً لأجداد السلطان عمارة تدخل تحت إطار هذه التسمية. ويجدر أن نذكر أن لُدولفُس Ludolphus، الذي كتب في نحو سنة ١٦٨٠م، يزعم أن مملكة سنَّار أو الفند أي "الفونج" والتي يحكمها سلطان شديد البأس كانت فيما مضى تدين بالولاء للحبشة ولكن ملكها مستقل الآن ويسيطر على الجزء الجنوبي من بلاد النوبة(٢٦). ولم تقف جهود الباحثين على مدلول الحبشة العام بل سعى كروفورد والشاطر بصيلي عبدالجليل لتحديد ذلك الموقع إعتماداً على اشجار النسب سالفة الذكر وغيرها (٢٧)

وعلى الرغم من أن كروفورد اعتمد على قرائن جغرافية بحتة ليقرر أن القلابات الواقعة على تخوم الحبشة وجنوب شرق سنَّار هي لمؤل فإنه قد أهمل كل المعلومات الجغرافية التي ذكرها روبيني عند وصفه لطبيعة ذلك الموقع . (٢٨) ويبدو أن كروفورد لم يكن مطمئناً على سلامة إقتراحه هذا فقرر في موضع آخر أن منطقة قانجار الواقعة على أعالي نهر الدندر بين القلابات وفازوغلي ربما كانت المنطقة التي إعتمد عليها عمارة لتجنيد عساكره. (٢٩) واعتمد كروفورد أيضا على بعض الروايات السائدة في إرتريا في أول هذا القرن والتي تذكر أن هناك صلة بين الفونج والبلو، ويبدو لي أن هذا الرأي يحتاج إلى ما يدعمه من أدلة كما يحتاج إلى دراسة تفصيلية لتاريخ البلو الذين يكثر ذكرهم في منطقة نفوذهم الواقعة جنوب سواكن.

ويري الأستاذ الشاطر بصيلي عبدالجليل أن سلطان الفونج الأول قدم من منطقة في شمال الحبشة (غرب إرتريا) حيث تقع لمؤل (أوللم كما يسميها) وذلك على أثر الحروب التي كانت سائدة بين ولاة الإمارات الإسلامية والمسيحيين من الأحباش. ولكن الأستاذ الشاطر سرعان ما تخلى عن رأيه الأول أو قل أنه عدَّل فيه على أثر إطلاعه على مخطوطة أو كتاب الزنوج. وخلاصة رأيه الجديد أن مجموعة من العرب قد هاجرت من الشام بأمر الخليفة عبد

الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥م) إلى جزيرة لامو الواقعة على ساحل المحيط الهندي جنوب الصومال، ثم لحقت بهم مجموعات أخرى من العرب يهمنا منها قبيلة فَنَجَ (بفتح الفاء والنون والجيم) التي نزحت من وادي شمايل الواقع في عمان واختلطت فَنَجَ مع من سبقها من الأمويين الذين أخذوا يعملون في التجارة وإتخذوا من الساحل موطناً لهم، وفي ظروف لا نعرف عنها الكثير هاجر بيت فنج من لامو وأخذ في غزو بلاد الصومال، أو المنطقة الواقعة بين بربر وسواكن.(٣٠)

أخيراً يربط الأستاذ الشاطر هذه الهجرة بمنطقة جنوب غرب إرتريا - الموضع الذي إتخذه منطلقاً للفونج في بادئ الأمر. ولم يبين الشاطر إن كان قد عثر على ما يؤكد حقيقة فَنَجَ هذه في الخليج العربي. كما أنه لم يبين في جلاء تاريخ تحركات هذه القبيلة. وهذه النظرية في رأيي رغم ما تثيره من جديد ربما تحتاج إلى ما يدعمها من وثائق خطية وآثار وما يزيل ما بها من ثغرات.

ومن الطريف أن واحدة من الروايات الوطنية التي جمعتها شعبة ابحاث السودان تزعم أن الفونج قد قدموا من الجزيرة العربية عن طريق الصومال ثم الحبشة حتى بلغوا سنَّار. (٣١)

ومهما يكن من أمر فقد يكون لرواية الموطن الحبشي، رغم تعدد صورها وما يعوزها من سند قاطع، ظِل من الحقيقة وربما كان هذا الموطن مجرد مقر مؤقت لذلك العربي أو المسلم الذي تزوج من أسرة وطنية في منطقة أعالي النيل الأزرق.

٢ . الأصل الشلكاوي:

كان أول من ربط بين الفونج والشلك هو الرحالة جيمز بروس (١٧٣٠-١٧٩٤م) الذي زار سنَّار في سنة ١٧٧٢م وجمع ما كان متداولاً عن أصل الفونج من رواة مختلفين وعلى رأسهم أحمد سيد القوم مدير شئون القصر الملكي أو رئيس الخدم. وانتهى الى أن الطبقة الحاكمة في مملكة الفونج هي فرع من قبيلة الشلك. ويمثل هذا الرأي خلاصة لما بلغه وهو في سنَّار وتقديره الشخصي لما سمع وليس كل ما روي في هذا الشأن. وفي واقع الأمر أن بروس كتب مشاهداته ومذكراته في كتاب بعد اثنتي عشرة سنة من عودته. وقد وصف أحد معارفه منحاه في التأليف بأنه لم يكن يوحي بالدقة وكان عفوياً فيما يختص بالتفاصيل. (٣٢) ولهذه الأسباب وغيرها وجدت هذه النظرية معارضة شديدة من شاتوي ونادلر، وتصدى آركلّ لهما مدافعاً عنها معتمداً على مصادر أخرى إلا أنه تحول عن رأيه الأول وعدَّل فيه. ورغماً من الهنات التي ذكرناها والتحفظات التي أبداها بعض الباحثين فإن رواية بروس تمثل تياراً روائياً قوياً كان سائداً في مملكة الفونج يسترعي الإنتباه ويستحق الإعتبار.

وخلاصة رواية بروس أن أمة من السود تعرف بالشلك تقطن في الشواطئ الغربية للنيل الأبيض على خط عرض ١٣شمال انقضُّوا بزوارقهم على الولايات العربية وهزموها في معركة آربجي... وأن أول سلاطينهم على الشاطئ الشرقي للنيل الأزرق هو عمارة بن عدلان الذي أنشأ مملكة وبنى سنَّار حاضرة لها. وعند قيام هذه المملكة كان الملك وكافة الشلك عبدة أوثان ولكنهم سرعان ما أسلموا بقصد التجارة مع القاهرة وإتخذوا كلمة الفونج التي فسروها لتعني سادة، غزاة أو مواطنين أحرار. واعتذر بروس عن عدم تمكنه من إعطاء تفسير دقيق لهذا اللفظ لجهله بلغة القوم وقال إنها تطلق فقط على الوافدين من (أو من ولدوا في) المنطقة الشرقية للنيل الأبيض. (٣٣)

والشلك احدى القبائل النيلية Niloticsالتي تسكن في منطقة فشودة على

الشاطئ الأيسر للنيل الأبيض وكانت ديارهم تمتد حتى بعد سقوط مملكة الفونج الى منطقة الجزيرة أبا. وكثيراً ما تعرضت المجموعات العربية التي تسكن على النيل الأبيض إلى غاراتهم، ولعل هذا ما حدا ببروس وكان قد سمع بغارات الشلك، ليربط تغلب الفونج على العرب بواحدة منها فقد قتلوا الولي إسماعيل صاحب الربابة في جماعة من أتباعه في عهد السلطان دكين بن نايل (ت ١٥٨٥ - ١٥٨٦م). (٣٤) كما حاربهم السلطان بادي أبو دقن (١٦٤٣ - ١٦٧٧م) وطردهم عن منطقة أليس (الكوة)(٣٥) قبل عبوره لغزو منطقة تقلي. (٣٦)

عيب هذه الرواية الأساسي أنه لم يرد ما يؤيدها في المصادر المتقدمة. ثم أن طبيعة العلاقات العدائية بين الفونج والشلك تجعل من المتعذر قبول مثل هذه النظرية. بل إن دراسة الأستاذ ب.أ. أوقوت لهجرة قبيلة اللو Lou والتي يمثل الشلك أحد فروعها الشمالية يرجح أنهم وصلوا الى موطنهم الحالي أي المنطقة الواقعة شمال ملكال في أواسط القرن السادس عشر حيث استعمروها بعد أن هزموا الفونج وطردوهم عنها. وتصف روايات اللو الشفاهية أن الفونج "شعب أحمر".(٣٧)

ربما كان في إدعاء اللو، أن الفونج "شعب أحمر" شيء من الصحة. فقد ذكر أن كلمة فون(٣٨) Fuin ترد في اللغات النيلية، وصورتها في لغة الشلك بوني Bwony ومعناها الغريب. وفوني Funy في لغة النوير ومعناها حبشي، وبونج Bunj أي عربي في لغة القولي (التي تحوي عدد الكلمات يمكن ردها إلى اللغات النيلية). كما أن لفظي فونجو (مفرد) وفونجي (جمع) اللذين ذكرهما بروس تشبهان مثليهما في النحو الشلكاوي. (٣٩)

لكننا نجد بعض التأييد لرواية بروس في مصادر متأخرة ولذا علينا أن نأخذها بحذر وأولها ما لاحظناه من قبل أن بعض النسَّابة لم يستطيعوا التوفيق بين سواد بشرة الفونج وإدعائهم نسباً عربياً أموياً فربطوا بين أصل الفونج والشلك والدينكا. فزعموا أنهم أبناء دوكة (وأمهم لوله - وهو لفظ يعيد إلى

الأذهان موطن الفونج الأول). ابن حسن الهلالي وهو إبن أمة سوداء. (٤٠) ثم إن احتمال وجود القتل الطقسي عند الفونج وتشابهه مع ما كان سائداً عند الشلك مما يرجح وجود صلة ما بين الشلك والفونج. (٤١) كما أن في إنتشار بعض المقاطع مثل (با) و (فا) في أسماء القرى الشلكاوية وقرى منطقة فازوغلي وإنتشار نفس الأسماء في المنطقتين مما يقوي وجود صلة بين الشلك والفونج، إما عن طريق الغزو أو الهجرة. (٤٢) وقد أثبتت الدراسات اللغوية المقارنة للغة الشلك واللغات المنتشرة في جبال الفونج وجود أثر الشلك في تلك المنطقة. (٤٣)

أما قول بروس من أن ملك الفونج وشعبه من الشلك كانوا وثنيين وأنهم اعتنقوا الدين الإسلامي بقصد تنشيط التجارة مع القاهرة فقول مردود. إذ أن كل الروايات بما فيها رواية روبيني قد أجمعت على أن الملك كان مسلماً منذ قيام مملكة الفونج. وأن الصلات التجارية بين مصر الإسلامية والسودان الشرقي قديمة جداً وأنها أسهمت في نشر نفوذ المسلمين في هذه الديار ولم يثبت أن الفونج صاروا مسلمين من أجلها .

لهذا كله وإن تعذر علينا الوصول إلى رأي قاطع حول الأصل الشلكاوي فإن هذه النظرية من القوة بحيث لا يمكن تجاهلها، وإنه وإن تعذر ايضاً إثبات وجود صلة عرقية بين الشلك والأسر الحاكمة في مملكة الفونج فهذا لا ينفي وجود وشائج ثقافية ولغوية بين الشلك والشعوب التي تسكن الجزء الجنوبي من مملكة الفونج. والتي تعرف بمنطقة فازوغلي أو جبال الهمج أو جبال الفونج والتي توصلنا إلى أنها مهد الاسرة التي أنشأت تلك المملكة .

٣ . الأصل البرناوي

في سنة ١٩٤٦م عدَّل آركلّ(٤٤) من تأييده المطلق إلى نظرية الأصل الشلكاوي مفضلاً موطناً في مملكة البرنو، والتي ترتبط نشأتها الأولى بهجرة عربية. وقد إتجه آركلّ إلى ذلك الرأي بعد أن جمع قدراً من الروايات المتداولة في دارفور عن صلاتها بمملكة كانم أو برنو، وعلى أثر إطلاعه على مخطوطات عن تاريخ مملكة برنو التي ترجمها ونشرها بالمر. وخلاصة رأيه أن سلطان برنو عثمان بن كادي (قاضي) ابن ماي داؤد لما هُزم في سنة ١٤٨٦م على أثر نزاع حول العرش، شق طريقه إلى حوض وادي النيل حيث تمكن هو أو واحد من سلالته(٤٥) من السيطرة على الشلك أولاً. ثم على مملكة سوبا ثانياً. ويسوق آركلّ بعض الشواهد التي تؤيد نظريته، فيقول إن البرنو والفونج يدينون بالمذهب المالكي وأن اسم عمارة ومشتقاته يكثر ذكره في قوائم ملوك البرنو. ولكنه نسي أن المذهب المالكي قد دخل مملكة الفونج من صعيد مصر وأن تلك المملكة قد تأثرت مؤخراً بهجرة بعض العلماء من المغرب. ولا شك أن هذه الصلة الثقافية لا تقف دليلاً على وحدة الموطن. كما أن تشابه الأسماء ليس دليلاً قاطعاً على وحدة الأصل.

وقد تعرضت هذه النظرية الى نقد مركز من الأستاذ هولت خلاصته أن المصادر الخطية التي إعتمد عليها آركلّ لا تؤيده في كل ما ذهب إليه، وقال إن واحدة من المخطوطتين اللتين تؤرخان لملوك البرنو لا تذكر شيئاً عن طرد عثمان بن كادي من بلاده. ولكن حاشية للمحق بالمر تروي نقلاً عن رواية أخرى أنه قيل إن عثمان قد مات في مكاده أو ماكده أي شمال كردفان والتي هرب إليها معظم سلالة داؤد فيما يبدو. ولكن آركلّ يهمل باقي الجملة التي تذكر إعتماداً على مخطوطة قيرقام Girgeam لفظ مكته أو ماكته أي بلاد الأمكتن (الطوارق). ويقرر آركلّ أن مكاده تعني سنَّار وليس الجزء الغربي من الحبشة كما هو معروف، أو شمال كردفان كما ذكر بالمر. وعليه فإن استنتاج آركلّ لا يخلو من الحدس والتخمين، وتعتمد نظريته أساساً على المكان الذي هاجر إليه عثمان بن

كادي وموضعه. ثم يستدل آركلّ على نظريته هذه بأن دولة آل داؤد سقطت في آخر الأمر على يد الأتراك بقيادة يوسف باشا، وهو ليس إلا يوسف باشا كرمانلي، حاكم طرابلس الذي بعث بغزوات إلى الجزء الشمالي من بلاد البرنو في أوائل القرن التاسع عشر. وهكذا يمضي الأستاذ هولت في تفنيد هذه النظرية حتى إنهارت أهم مقوماتها. (٤٦)

الغريب الحكيم :

توصل الأستاذ هولت إلي رأي جديد على ضوء ما جاء في **مخطوطة كاتب الشونة**، نسخة فيينا التي تحوى معلومات جديدة في هذا الموضوع. وقد نشر الأستاذ هولت هذا النص مع ترجمة ودراسة نقدية لأصل الفونج. وسأكتفي بمناقشة الجزء الذي يتحدث عن نظرية " الغريب الحكيم" وهو ما لم أتعرض له من قبل. ونلاحظ أن هولت يبعد الفقرة التي تروي ما قيل عن أن الفونج من بني أمية أو من بني هلال على أنها قد أقحمت على النص. وبعد أن تذكر المخطوطة أن بداية الفونج كانت بلول: "والشايع أن كبارهم يجتمعون عند كبيرهم ويأتون بالطعام فأكل من سبق أكلوه.(٤٧) ويقيمون بجيلي حتى قدم رجل من السافل فنزل بينهم ونظر أحوالهم. فأشار عليهم وصار كلما جاء طعام يحبس حتى يجتمع فيقوم ويفرقه عليهم فكانوا يأكلون ويفضل الباقي فقالوا رجل مبارك لم يفارقنا فزوجوه بنت ملكهم وولدت ولداً. فلما نشأ وكبر مات جده فإتفق رأيهم أن يجعلوه محل جده ويتبعوه الكل، ففعلوا ذلك ولذلك سموا بالأنساب" .(٤٨) [كذا].

ثم يذكر النص بعض العادات المنتشرة بينهم كإتخاذهم سريراً يحملون عليه الملك وزوجه عند رحيلهم، وأنهم كلما عينوا سلطاناً جديداً زوجوه من نسل تلك المرأة. وتسرد المخطوطة انتقالهم إلى جبل موية ومعهم أبقارهم وكيف تعدى ثورهم إلي الغابة الواقعة بالقرب من مسكن جارية تدعى سنّار وهو ما تعرضنا

إليه من قبل .

ربط هولت مجئ هذا الرجل المبارك، وتعليمه لسكان لول آداب أكل أكثر تحضراً مما ألفوه، بأسطورة الرجل "الغريب الحكيم" الذي يفد من وسط حضاري عريق إلى منطقة متخلفة، والتي مثل لها بملوك الفور وتقلي والنابتاب.(٤٩) وتعكس هذه الأسطورة وجود علاقات ثقافية بين مهد الحضارات النوبية على وادي النيل ومناطق أخرى (ربما) في عهد سابق لإنتشار الإسلام في المنطقة المتخلفة، أي أن الرجل المبارك ليس بالضرورة أن يكون مسلماً كما توضح هذه الرواية. وبانعدام برهان يسند هذه الرواية فإن زواج الغريب من بنت الملك لا يعكس حقيقة تاريخية بل تفصيلاً روائياً شعبياً لهذه الظاهرة . (٥٠)

ولرواية **مخطوطة كاتب الشونة** والتي يرجح هولت أنها سجلت من روايات شفاهية، مثيل ولكنه غني بالتفاصيل مع كثرة اختلافها في الأخبار التي جمعها نادلر منذ عهد قريب. وموجز أخبار نادلر أن عبدالله بن الحكم الأموي لجأ الى الحبشة بعد قيام الخلافة العباسية وأخذ يدرِّس القرآن في (عروسا) ثم رحل ابنه سليمان الى (قرا) من بلاد القالا وأخذ يدرس القرآن أيضاً. ولكن معارضة الوطنيين لنشاطه هذا اضطرته للهجرة إلى (تافا)، حيث استمر في تدريسه للقرآن. وهناك كسب عطف الناس ورضاءهم عندما علمهم كيف يأكلون في جماعة فنزلت البركة على ما يأكلون. وسر الملك منه وعينه وزيراً له وزوجه بنته، وكان من أبنائه عمارة دونقس. (٥١)

مع أن هذه الرواية مثل كل الروايات الشفاهية لا يمكن قبولها إلا في شيء من التحفظ فإنها تنفي ما يفهم من **مخطوطة كاتب الشونة**، من أن الرجل الغريب ليس بمسلم وأنه وفد من السافل (أي الشمال). وتتفق مع المضمون العام للروايات الأخرى عدا بروس والأصل البرناوي، من أن ذلك الغريب كان مسلماً وأنه جاء من الحبشة ومن ثمّ فإن قبول نظرية " الغريب الحكيم" لا يحتم اتخاذ (السافل) - أي بلاد النوبة منطلقاً لها: فقد يفد هذا الغريب من الحبشة مثلما

وفد "غريب الفور" من تونس. ويبدو لي ان زواج هذا الغريب من بنت الملك واعتلاء ابن له العرش المحلي ليس إلا مظهراً من نظام الوراثة عن طريق الأم الذي كان شائعاً في أجزاء كبيرة من السودان الشرقي.

٤ . خاتمة:

يتضح من هذه المناقشة للآراء التي قيلت حول أصل الفونج وموطنهم أن قلة الأخبار المعتمدة تحول دون إبداء رأي قاطع في هذا الموضوع الشائك. ونخلص مما تقدم أن بلدة "لول" الواقعة في منطقة أعالي النيل الأزرق عامة أو في منطقة جال الهمج أو الفونج خاصة، شهدت قدوم رجل حكيم من الحبشة فعلّم الوطنيين وهم من السود آداب الأكل فحلت البركة فيما يأكلون وسموه بالرجل المبارك. وتوسم ملكهم فيه الحكمة ورجاحة العقل وزوجه إبنته وتمكن أحد أبناء هذا " الغريب الحكيم" من وراثة عرش جده لأمه مستغلاً نظام الوراثة عن طريق الأم الذي كان متفشياً بين شعوب السودان الشرقي. وهناك ما يشبه الإجماع بين هذه الروايات من أنه عربي مسلم وربما كان أموياً، وترجح خلاصة أراء ابن خلدون حول هجرة جهينة أنهم قد بلغوا أطراف الحبشة الشمالية الغربية أو الجزء الجنوبي الشرقي من سودان وادي النيل.

بل إن في إطلاق كلمة الفونج وهي تعني الغريب باللغات النيلية ما يرجح ما ذهبنا إليه من قدوم ذلك الغريب ومهما كان أصل هذا الغريب الحكيم فإن شدة التلاحم بين ذريته وبين الوطنيين لم تبق على ما ما يميز أحفاد هذا الطارئ الفطن من الوطنيين السود. وقد لاحظنا كيف أن ود ضيف اللّه ميَّز في كتابه بين ملوك الفونج وملوك العرب (مثل العبداللاَّب والجعليين) معبراً عن إدراك أمثاله من الوطنيين المستعربين بوجود ثمة فرق عرقي بين الإثنين. ولعل الإشارة إلى سلطان الفونج "بسلطان الدار الزرقاء" وإلى المملكة "بالسلطنة الزرقاء" يرجح ما ذهبنا إليه. (٥٢)

ولعل غلبة السواد هذه هي التي دفعت بروس أن يتلمس من الأسباب

والروايات ما يبطل به زعم الفونج من أنهم من سلالة بني أمية. ومهما يكن من أمر فيحسن ألا نخلط بين أصل الصفوة الحاكمة وبين عامة الشعب إذ يتضح من قراءة مذكرات بروس وما توصل إليه من نظرية عن أصل الفونج أنه قد تأثر في حكمه هذا بالحاشية التي رأها في بلاط الفونج مثل أحمد سيد القوم الذي ولد في فازوغلي وغيره من الجند الذين جلبوا من جبال النوبة. ويبدو أن رواج أخبار غارات الشلك على سكان المنطقة الواقعة إلى الشمال من ديارهم مما جعله يظن أن الفونج من سلالة الشلك ويجب ألا يغيب عن بالنا أن منطقة جبال الهمج تنم عن وجود بعض المميزات الثقافية واللغوية التي تصل بينها وبين الشلك.

وكان الفونج وعامة شعبهم يحترفون تربية الماشية عند بداية توسعهم نحو الشمال واستقرارهم بالقرب من جبل موية. وليس من السهل أن نحدد التاريخ الذي جاء فيه ذلك "الغريب الحكيم" والفترة التي إنقضت حتى إستطاع إبنه أو أحفاده أن يرثوا الملك ويبدأوا في توسعهم الذي قادهم حتى سنَّار، وأدى إلي إصطدامهم بالعبداللاَّب في أوائل القرن السادس عشر.

ب . الحلف الفونجاوي - العبدلاًبي:

نشأت مملكة الفونج الإسلامية في نحو عام ١٥٠٤م وسقطت على يد الجيش التركي المصري في سنة ١٨٢١م وكانت تسيطر على رقعة كبيرة من سودان وادي النيل وقد تربع على عرشها نحو خمس وعشرين سلطاناً .

ترتب على هزيمة الحلف العربي الذي كان يتزعمه العبداللاَّب على يد الفونج إقامة صرح سياسي جديد وهو يمثل في قمته نوعاً من الحكم الثنائي الذي يعطي الفونج الكلمة الأولى في إدارة البلاد، كما يمثل نوعاً من التحالف الفضفاض بين زعامات أو مشيخات قبلية متعددة بينها وبين العبداللاَّب من جهة أو الفونج من جهة أخرى على مستوى أدنى. وكانت مملكة الفونج الإسلامية أو السلطنة الزرقاء أبعد ما تكون عن الحكومة المركزية فليست هناك مؤسسات

إدارية متماثلة تنتشر في سائر أنحاء المملكة ربما عدا التنظيم القبلي. وكان تدخل السلاطين في الشئون الداخلية للتنظيمات الإدارية والإقليمية أو المشيخيات لا يتعدى جباية الضرائب وتعيين شيخ، أو زعيم، أو ما يعرف بالمك (وجمعها مكوك أي ملوك) مكان الزعيم المتوفي، ولكن أسرته الحاكمة. وربما رفضت المشيخيات تسديد ما عليها من ضرائب أو الإمتثال لإختيار السلطان لشخص معين ومن ثم فإن قوة جيشه الرادعة كانت صمام الأمان لكثير من حالات التمرد والفيصل فيها. ومع وجود هذا التنظيم الإداري الفضفاض الذي يكفل قدراً كبيراً من الإستقلال في الشئون الداخلية فإن سعة رقعة البلاد وتباين شعوبها والمنافسة الكامنة بين الفونج والعبداللاَّب أدت إلى كثير من التوترات والتناقضات والتي - ربما - كانت السبب الأساسي في ضعف فعالية المملكة وإضمحلالها في آخر الأمر.

كان ملك العبداللاَّب، وهو ما يعرف بالمانجِل أو المانجُلُك وهي كلمة غير عربية ولا يعرف أصلها عل وجه التحقيق، يحكم الجزء الشمالي من مملكة الفونج ويمتد من أربجي في الجنوب حتى الشلال الثالث في الشمال. كما كان لهم بعض النفوذ السياسي على بلاد البجة سنذكره في موضعه. أما إمتداد حكمهم من الناحية الغربية فالراجح أنه لا يبعد عن شواطئ النيل كثيراً وربما كان لهم بعض النفوذ على البدو الذين يسكنون الصحراء مثل الكبابيش والحسانية وبني جرار ليؤمنوا طرق القوافل التجارية التي كانت تخترق بلادهم. وهذه الحدود تختلف عما جاء في (وقفية) أو وثيقة عبداللاَّبية صدرت في عهد الملك دياب بن بادي بن الشيخ عجيب وتحمل تاريخ ١١٤٩/ ١٧٣٦م. وتحدها من جهة الكاب[٥٣] في الغرب، وشرقاً سواكن ومن جهة الصعيد الحبشة وشمالاً ببندر أسوان. [٥٤] ويبدو أن حدود العبداللاَّب بلغت كردفان قبل قيام مملكة الفونج، وهو ما يؤكده دي كادلفان ودي بروفري. [٥٥] كما أن حدودهم الشمالية قد تراجعت إلى الشلال الثالث، إثر إمتداد النفوذ العثماني إلى بلاد النوبة

السفلى في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦م) على يد أزدمير باشا بعد عام ١٥٥٠م. وهناك بعض الروايات التي تؤكد قيام حرب علي الحدود بين العبداللاَّب (أو الفونج) والغُز أو الأتراك. (٥٦) كما أن إدعاء العبداللاَّب أن الشيخ عجيب المانجُلُك قد غزا "عربان الصبح" أي الشرق وهزمهم وأن فتوحاته قد بلغت سواكن ومصوع فيه شيء من المبالغة. وربما عكست تلك الروايات صدى الصدام بين العبداللاَّب وبعض زعماء البجة أو البلو الذين كانوا يسيطرون على منطقة سواكن قبل سيطرة العثمانيين عليها. وربما كان بعضها صدى لزواج الشيخ عجيب من مريم عشيب، وهي من الأمرأر وهم فرع من البجة. فأنجبت له ابنه عثمان الذي صار أبناؤه، ويعرفون بالعتامنة، أو الأتمن، زعماء على قبيلة الأمرأر حتى يومنا هذا. وفي أثناء تجواله في تلك المنطقة فتح الشيخ عجيب طريقاً للحج وحفر الآبار ومنها حفير الفولة.

تربط بعض الروايات نشأة النابتاب زعماء البني عامر، وهم أبناء على نابت، ببعض الجعليين الذين تخلفوا بعد حروب الشيخ عجيب في تلك المنطقة. (٥٧) وفي اعتبار الحبشة حداً لنفوذ العبداللاَّب من الجهة الجنوبية الشرقية كثير من المبالغة، إذ أن العبداللاَّب كانوا يسيطرون فقط على الأجزاء المتاخمة لهم من أرض البطانة. ولم يبلغ نفوذهم أطراف الحبشة إلا في رواياتهم التي تذكر أن الشيخ عجيب قد ثار على رؤسائه الفونج وطردهم حتى حدود الحبشة بسبب خلاف بينه وبين السلطان عبدالقادر (أو سليمان) في بعض المسائل الدينية. وتؤكد تلك الروايات أن غزوهم هذا تشهد عليه المساجد التي شيّدها بأحمر موقي بالقرب من الروصيرص وآخر بفداسي وثالث في بلاد قبائل الكومة، والأعمام. (٥٨) ومهما يكن نصيب هذه الرواية من الصحة فإن الفونج قد استردوا مكانتهم في عهد السطان دكين. (٥٩)

كان حكم العبداللاَّب المباشر محصوراً في المنطقة الواقعة بين حجر العسل وأربجي، وكانت قرِّي حاضرتهم أول الأمر ثم أنتقلوا منها إلى حلفاية الملوك في

القرن الثامن عشر. وأما المنطقة المواجهة لقرِّي من جهة الغرب والممتدة حتى الترعة الخضراء بالقرب من الدويم فقد كانت تحت سيطرة مشيخة الجموعية. وإلى الشمال من حجر العسل كان العبداللاَّب يعتمدون على سلسلة من المشيخات والتي ربما كانت في الأصل زعامات نوبية قديمة إنتقلت السلطة فيها من النوبة إلى العرب بعد أن صاهروهم. وأول هذه الممالك من الجنوب مملكة الجعليين بقيادة السعداب ومن أشهر ملوكهم إدريس الثالث، وكان أحد أجداده ويسمى الفحل، قد تزوج ستنا بنت الشيخ عجيب ورزق منها بابنه إدريس الذي زاره الرحالة بروس. ومقر السعداب شندي المدينة التجارية الهامة وملتقى ثلاثة طرق رئيسية من مصر وسواكن وسنَّار. وكان للسعداب حروب كثيرة مع الشكرية والبطاحين والعبداللاَّب أنفسهم. وكان المجاذيب ومركزهم الدامر يمثلون الزعامة الدينية وكان لمكانتهم العلمية والروحية أثر كبير في نفوس أتباعهم، بل كانوا مصدر أمن وسلام للقوافل التجارية التي كانت تسير بالقرب من دائرة نفوذهم، إذ كثيراً ما احتمت بهم. وإلى الشمال من المجاذيب تنتشر مشيخات الميرفاب والرياطاب والمناصير والشايقية ومملكة الدفار ودنقلا العجوز والخندق والخناق وأرقو. وفي المملكة الأخيرة تقع مدينة مشو أولى المدن الفونجاوية(٦٠) من الشمال وهي كقرِّي وبربر وشندي واحدة من النقاط الجمركية المهمة في البلاد.(٦١) ومن هذا يتضح أن العبداللاَّب كانوا يسيطرون على رقعة واسعة من مملكة الفونج وأن سكانها هم البجة والنوبة والنوبة المستعربون من سكان وادي النيل والبدو من العرب، وأن دائرة نفوذهم هذه كانت مهد حضارات عريقة. وقد لعب المستعربون من النوبة خاصة دوراً رئيسياً في انتشار الإسلام في الدويلات الإسلامية الأخرى .

وكان الفونج يسيطرون على الجزء الواقع جنوب أربجي حتى جبال فازوغلي في الجنوب. ومن الشرق تتاخم بلادهم الحدود الحبشية. وأخذت حدودهم نحو الغرب تتسع تدريجياً حتى بلغت كردفان في أواسط القرن الثامن عشر. وفي

عهد السلطان عبدالقادر بن عمارة حاصر الفونج جبلي سقدي ومويه في نحو عام ١٥٥٤م وهزموا سكانهما ثم أسروا زعيميهما وقادوهما في سلاسل من الذهب إلى سنَّار. وهناك بعد أن اعتنقا الدين الإسلامي وقبلا دفع ضريبة سنوية أعادوهما إلى منصبيهما. (٦٢) وشهد عهد السلطان بادي أبو دقن ١٦٤٤ - ١٦٤٥ - ١٦٨٠م والذي يمثل العهد الذهبي لسلطنة الفونج توسعاً كبيراً في كردفان. وبعد أن هزم الفونج قبائل الشلك التي كانت تسيطر على النيل الأبيض وتشكل بغاراتها المتكررة خطراً كبيراً على المجموعات العربية التي تسكن الجزيرة احتلوا معبر إليس الشهير ، وهو موقع استراتيجي مهم يضمن لهم السيطرة على تحركات الجيوش والقوافل التي تعبر النيل الأبيض لكردفان. وتتضح أهمية إليس في أن حاكمها أو شيخها كان ذا رتبة رفيعة وكثيراً ما يأتي ذكره في الوثائق بعد ملك العبداللاَّب مباشرة، كما ويختار من الفونج أنفسهم. (٦٣) وخرجت جيوش الفونج لغزو مملكة تقلي الإسلامية. وقد شرحنا أسباب ذلك عند حديثنا عن تلك المنطقة. (٦٤) ولكن غزو الفونج لم يقف عند تلك المملكة بل شمل أجزاء كبيرة من جبال النوبة بما فيها جبل الداير وبعض سهول كردفان مما كان يقع تحت سيطرة الغديات. وترك الفونج ملك تقلي في منصبه بعد أن قبل أن يدفع جزية سنوية، وعهدوا إلي الغديات حكم منطقتي جبل الداير وكردفان نيابة عنهم. وبذلك تحقق للفونج ما كانوا يصبون إليه من السيطرة على مناطق الرقيق من جبال النوبة حتى يضمنوا مصدراً ثابتاً للرقيق. وقد استغل السلطان الأسرى الذين سُبُّوا في تلك الحرب وغيرهم في تكوين جيش له.

وبإزدياد نفوذ المسبَّعات في كردفان، ومحاولتهم خلق مملكة لهم في الإقليم الأوسط من كردفان والذي كان يمثل إلى درجة كبيرة دائرة نفوذ فنجاوية، اضطر الفونج للتدخل ومحاربة المسبَّعات في عام ١٧٤٧م إلا أنهم مُنُّوا بهزيمتين. واستطاع محمد أبو لكيلك أن ينتزع النصر بمجهود جبار من المسبَّعات. وقد إنهار ما حققه الفونج بانسحاب الوزير أبو لكيلك واشتغاله ببعض القضايا

الداخلية. وفي واقع الأمر فإن مملكة الفونج قضت الأعوام الأخيرة من وجودها في كردفان في صراع شديد مع المسبَّعات والفور لضمان بقاء نفوذها في كردفان. وقد تم النصر أخيراً للفور وظلت كردفان تابعة لهم منذ انسحاب الفونج في عام ١٧٨٦م حتى دخول الجيش التركي المصري في سنة ١٨٢١م وقد أوضحت تفاصيل ذلك في حديثنا عن المسبَّعات. (٦٥)

وقد خاض الفونج حربين مع الحبشة ولكنهما لم يؤديا إلى تغيير جوهري في الحدود بين البلدين، بل إن سِجِل الصلات يعكس كثيراً من مظاهر التعاون في المناحي التجارية والثقافية، خاصة وأن مملكة الفونج كانت المنفذ الأرضي الوحيد الذي يوصل الحبشة بالعالم الخارجي لفترا ت طويلة. وكان أول صدام وهو لا يخرج عن مناوشات على الحدود ويعرف بالحرب الحبشية الأولي، قد حدث في أوائل القرن السابع عشر. ففي نحو عام ١٦٠٦م منح الإمبراطور الحبشي السلطان عبدالقادر بن أونسة حق اللجوء السياسي إثر طرده من العرش، بل عينه حاكماً على مقاطعة شلقا المتاخمة للحدود الفنجاوية.

أغضب هذا الصنيع السلطان بادي سيد القوم الذي خشي أن يتدخل الأمبراطور الحبشي لصالح السلطان المطرود. ويقال أن الإمبراطور بعث بهدية للسلطان بادي مكونة من عقد من الذهب وكرسي مذهب ولكنه خشي أن يفسر قبولها بأنه صار تابعاً للإمبراطور فبعث السلطان بهدية مكونة من زوجين من الخيل الهرمة العرجاء تحقيراً للإمبراطور. كما استجار به حاكم مزجا المارق على الإمبراطور. وفي عامي ١٦١٤م و ١٦٤٥م نجح الإمبراطور سوسنيوس في كسب صداقة نايل ود العجيب، زعيم قبيلة رفاعة الشرق، الذي كان قد توغل غازياً في الحبشة، ثم أرتد ليهاجم ويخرب بعض ممتلكات الفونج على الحدود. وعند إعتلاء السلطان رباط بن بادي العرش حدثت مواجهة بين البلدين أخذت شكل مناوشات وحروبات صغيرة على الحدود، وظل العاهلان الحبشي والفونجاوي في عاصمتيهما دون أن يشتغلا بأمر هذه الحرب التي إستمرت

خلال عامي ١٦١٨ و١٦١٩م. وانتهت الحرب دون أن يحدث اشتباك رئيسي واعتبر الأحباش أنفسهم منتصرين ولعل صمت المصادر السودانية عن ذكر هذه الحرب يفسر عدم أهمية الحرب في البلاط الفونجاوي أو أن ما لحق بهم من خسائر لم يكن كبيراً.

أما الحرب الحبشية الثانية فقد نشبت في عهد الإمبراطور إياسو الثاني (١٧٣٠م- ١٧٥٥م) الذي أراد أن ينتقم لمقتل السفير الفرنسي دي رول في سنَّار والذي كان يسعى لإثارة الفتنة بين الفونج والحبشة. وفي مارس ١٧٤٤م سار الإمبراطور إياسو من غندار حتى مشارف مدينة سنَّار. وهناك هزم هزمية نكراء ونجا الإمبراطور من الموت بأعجوبة. وقد قام الأمير خميس جنقل المسبَّعاوي بدور مهم في إنتصار الفونج. [٦٦] ويعتبر هذا النصر معلماً هاماً في عهد السلطان بادي أبو شلوخ. ويعلق عليه كاتب الشونة بقوله: "وفرح الملك بادي وأهل سنار، ووفوا بنذورهم وعملوا الموالد، وذبحوا الولائم ونشروا الحرير، وزينوا المسجد والسوق.. وسمع سلطان الروم (الأتراك) بذلك ففرح بنصرة الإسلام والدين".[٦٧]

كان سلاطين الفونج يحكمون الجزء الجنوبي من الجزيرة ، أو جزيرة الهوى، الواقع بين أربجي وسنَّار حكماً مباشراً، وربما ساعدهم في ذلك بعض المشايخ مثل شيخ إليس الذي تقدم ذكره، كما كانوا يشرفون على عدد من المشيخيات أو الزعامات شبه المستقلة مثل مشيخة خشم البحر الواقعة على النيل الأزرق بين رنقة والروصيرص. ويقال إن شيخ البحر كان من القواسمة إلا أنهم قد صاهروا الفونج، مثل بعض مشايخ الزعامات المستقلة، كالغديات وملوك فازوغلي والذين يروي البعض أنهم من الفونج. وتقع مملكة فازوغلي بين الروصيرص وفداسي وتدل سلسلة أسماء ملوكها التي أوردها نعوم شقير أن ملوك هذه الأسرة من سكان تلك المنطقة لم يختلطوا كثيراً بالعرب، كما كان يسكن بينهم كثير من عبدة الأوثان. أما مشيخة الحمدة فقامت على نهر الدندر ومشايخها عرب رحل

ومـركـزهم دبركي وقـد أغـدق عليـهم سـلاطين الفـونج لقب مـانْجِل كـملوك العبداللّاب. ويرد ذكر مشيخات أخرى، يصعب تحديدها، مثل مشيخة بيله والتاكا ولعلها مملكة الحلنقة ومشيخة أتبره الواقعة بين خشم القربة والقلابات ومملكة البني عامر. (٦٨)

وكـان الفـونج يعـينون أو يؤيدون تعـيين مـشـايخ الممالك التي تخـضع لهم مباشـرة، بما في ذلك مكوك العبداللّاب. وكـان العـبداللّاب يختـارون المشـايخ الذين تحت سيادتهم فإذا مات للعبداللّاب ملك، مثلاً، اختار أهل الحل والربط من البيت خليفة له من أبنائه أو إخوانه، ثم خفوا به إلى سنّار لتأييد إختياره. وبما أن نظام إختيار الإبن الأكبر لم يكن متبعاً في إطراد فإن عملية الإختيار كـانت تخـضع لضـغـوط داخلية كـثـيـرة بين فـروع البيت المالك أو (خشم بيت المشيخة). بل كان الفونج يختارون أكثر الأشخاص ملاءمة لهم ومقدرة على تنفيذ سياستهم وأهمها جمع الضرائب لهم. ومن علامات الرئاسة الطاقية أم قرنين والككر، وهو مقعد شخبي ذو أربعة أو ستة أرجل. وتمتلك بعض المشيخيات نحاساً، وهو طبل كبير مصنوع من النحاس والجلد. وكان العبداللّاب ينادون بلقب مانْجِل أو مانجُلُك ويشاركهم فيه أخرون كمشايخ الحمدة .

اعتمدت مملكة الفونج في تنفيذ سياستها وتأديب القبائل المتمردة على جيش قوي مدرب. وكان أهم عنصر في الجيش الفونجاوي هم الخيالة (ذوو الأسلحة الثقيلة) وهي عبارة عن قميص من الحديد وخوذة من النحاس ورمح وسيف عريض ودرع بيضاوي الشكل. وكان معظم هؤلاء الجنود من السود. وكانوا يمتطون صهوات جياد سوداء اشتهرت بأصالتها وقوة إحتمالها. (٦٩) ولم يكن عدد الجيش الذي رآه بروس كبيراً بل ربما لم يتجاوز الألفي فارس، وكان بمثابة القوة الضاربة المدخرة كجيش احتياطي لمواجهة الأخطار الكبرى ولحراسة سنّار نفسها. وكان الوزير محمد أبو لكليك يسيطر على ألف فارس عند حكمه لإقليم كردفان ولا شك أن صغر حجم هذه القوة الفعالة ينبع من أن تكاليفها باهظة

جداً، ومن ثم فلم يكن في مقدور الدولة المحافظة على جيش كبير في ذلك المستوى الرفيع، بل لم يكن في ميسور غير الفونج وشركائهم العبدللاّب (إلى حد ما) تكوين مثل هذا الجيش. وفي حالات الحرب فإن الدولة تلجأ لتكوين جيوش أقل كفاءة في شكل خيالة وأبالة ومشاة ممن يجمعونهم من سائر القبائل. ولا شك أن روايات العبداللاّب قد جانبها الصواب عندما إدعت أن الجيش العبداللاّبي المعد لحراسة قرِّي قد بلغ عدده "اثني عشر ألف فارس على اثني عشر ألف حصان في لون واحد".(٧٠)

ومنذ عهد السلطان بادي أبو دقن، وهو يمثل العصر الذهبي لمملكة الفونج، أخذت الدولة تقلل من إعتمادها على الجنود التقليديين الذين يجمعون من القبائل، أو على "جنود لولو" الذين قاموا بدور قيادي في قيام مملكة الفونج والمحافظة على تقاليدها. وقد ظهر هذا واضحاً بعد غزو الفونج لمملكة تقلي وجبل الداير، فعاد الجيش، كما ألمحنا من قبل بأعداد كبيرة من الأسرى. وشيّد السلطان القري لهم واتخذهم سنداً وبطانة له. (٧١) ثم تكاثر عددهم بالشراء والسبي من منطقة الجبال، حتى اُعتبرتهم العناصر التقليدية في الجيش الفونجاوي خطراً عليهم. وخلق جيش من الرقيق أو جيش مملوكي كهذا يعيد إلى الأذهان ما إستنه الخليفة المعتصم عندما اتخذ الأتراك بطانة وحرساً له، وسار عليه المماليك في مصر، والتزم به سلاطين الفور في القرن الثامن عشر الميلادي. وكان أول إحتجاج مسلح على هذه البدعة في عهد السلطان بادي الأحمر{١٦٩٢ - ١٧١٦م }عندما ثار أهله الفونج عليه في كل من سنّار وإليس ومعهم مك العبداللاّب، وأرادوا أن يعزلوا السلطان فقاتلهم وهزمهم. إلا أن "جنود لولو" وهم الفونج الذين يسكنون في الصعيد قد تمكنوا من عزل إبنه أونسة الثالث ١٧١٦م-١٧٢٠م بعد أن إتهموه باللّهو وإرتكاب الفحشاء. ولعل الدوافع الحقيقية لعزله تكمن فيما ذهبنا إليه من إحتضانه للرقيق كأبيه وجده، واتخاذهم جنداً له. وفي عزل أونسة الثالث وتعيين نول (١٧٢٠ - ١٧٢٤م) وهو

من غير الأُونساب خلفاً لأنه "رجل عاقل مسن عادل" ما يشف عن رغبة قدامى النبلاء في بلاط الفونج في عدم تشجيع بقاء جيش مملوكي. (٧٢) ولكن بالرغم من هذه الاحتياطات فإن الدولة ظلت تعتمد على مثل هؤلاء الجند. ومهما يكن من أمر هذا الجيش الخاص فإن انشاءه أدى إلي صدام بين القوى التقليدية في المملكة وبين هؤلاء الجنود من الموالي وهو واحد من إمارات التدهور والإختلال التي أخذت تنخر في كيان الدولة .

بدأت أول مظاهر الإختلال في ميزان القوى الذي ينظم العلاقات بين الحليفين أو الشريكين الفونج والعبداللاَّب، عندما أحس العبداللاَّب بشيء من القوة فحاولوا أن يثأروا لهزيمتهم في أربجي. وتضطرب روايات العبداللاَّب في تفسير أسباب هذا الصدام وتقول إنه إختلاف بين السلطان عبدالقادر (أو سليمان) والشيخ عجيب في بعض المسائل الدينية. وقد أدى ذلك إلى حرب بينهما فانتصر العبداللاَّب وطردوا الفونج حتى أدخلوهم الحبشة. ثم تمكن الفونج من إسترداد ما فقدوه وهزموا العبداللاَّب أنفسهم كما ذكرنا من قبل. إلا أن الشق الأول من هذه الرواية لا يجد تأييداً في المصادر الأخرى. وفي واقع الأمر فإن روايات العبداللاَّب تشير إلى صدامين منفصلين أولهما ما ذكرناه وثانيهما الذي تجمع عليه سائر المصادر والذي إنتهى بهزيمتهم في كركوج. (٧٣)

ويبدو لي أنه فوق مظاهر التنافس بين العبداللاَّب وسادتهم الفونج ومحاولة العبداللاَّب التخلص من تلك التبعية، أن السبب المباشر يكمن في السياسة التنظيمية التي إبتدرها السلطان دكين بن نايل (١٥٦٣ - ١٥٧٠م) الذي يروى عنه أنه: "رتب الدواوين أحسن ترتيب وجعل لهم قوانين مربوطة لا يتعداها أحد من جميع مملكته، وجعل لكل جهة من جهات مملكته رئيساً معلوماً... ".(٧٤) وقد أدى هذا التصرف من السلطان دكين إلى إختلال في ميزان القوى مما دفع بالشيخ عجيب أن يستشير الولى الشهير الشيخ إدريس ود الأرباب قائلاً: "إن الفونج غيروا العوايد علينا".(٧٥) فأشار عليه الشيخ إدريس بعدم حربهم، ولم

يستمع الشيخ عجيب لنصحه وعصا سلطان الفونج وخرج من طاعته، فبعث له السلطان عدلان ولد آيه (١٦٠٤ -١٦٠٥- ١٦١٢م) بجيش بقيادة بادي بن رباط فهزمهم وقتل الشيخ عجيب في معركة كركوج الواقعة بالقرب من الجريف شرق في نحو سنة ١٦١١ م. ولجأ أولاد الشيخ عجيب إلى دنقلا، وعادوا إلى مشيختهم على إثر توسط الشيخ إدريس ود الأرباب؛ ونصَّب السلطان عدلان أحد أبناء الشيخ عجيب ولعله العجيل، خليفة لأبيه. وعلى أثر تلك الهزيمة التي لحقت بهم لم يحرك العبداللاَّب ساكناً، حتى عهد الشيخ الأمين مسمار الذي أخذ يتآمر مع الفونج ضد الهمج ولكنه عزل عام (١٧٨٣ - ١٧٨٤م). (٧٦)

شجعت هزيمة العبداللاَّب مشيخة الشايقية أن تتمرد على سادتها من العبداللاَّب والفونج في النصف الثاني من القرن السابع عشر. (٧٧) ويبدو أن العبداللاَّب قد طالبوا الشايقية، على عادتهم السابقة، بما عليهم من ضرائب وإضطر علي ود عثمان (١٦٨١-١٦٨٨م) ملك العبداللاَّب أن يحاربهم فهزمه زعيمهم حمد ود عثمان، فاستنجد مك العبداللاَّب بالسلطان بادي بن رباط (١٦٤٤- ١٦٤٥- ١٦٨٠م). ولكن السلطان لم يرسل الإمدادات المطلوبة لأسباب لا نعرفها. (٧٨) ومنذ ذلك الحين إستقل الشايقية بحكم بلادهم، وصاروا يهيمنون على المنطقة الواقعة بين شبه شلال الضيقة والشلال الرابع واستفادوا من القلاع المحصنة على شواطئ النيل في الدفاع عن بلادهم، وأخذوا يغيرون على جيرانهم متعمدين النهب والسلب، حتى صاروا مصدر رعب للدناقلة والبديرية والنوبيين عامة علي الحدود المصرية وللقوافل التجارية. وكان انفصال الشايقية أول شرخ صعب على الدولة تلافيه.

انفلت زمام السلطة من الفونج بعد أن تسلط عليهم وزراؤهم من الهمج، وقد حدث ذلك بعد إنتقال الأمر من الأُونساب سلالة ملوك الفونج الأوائل إلى ذرية السلطان نول الذي تربطه بالأُونساب صلة القربى عن طريق أمه. ولم يتمتع بالسلطة من أفراد البيت الجديد سوى نول وابنه بادي أبو شلوخ ١٧٢٤ -١٧٦٢م.

وقد إتسم النصف الأول من عهد السلطان بادي بالعدل والرخاء وكان قد ترك الأمور لوزيره دوكة، فلما مات دوكة إستبد بالأمر وأباد بقية الأُونساب من الفونج وطرد الأعيان التقليديين أو "أهل الأصول" كما يسميهم كاتب الشونه، وأكثر من إعتماده على رقيقه من النوبة ومكَّن لهم وعهد لهم بالوظائف الهامة في الدولة. ثم تمادى في ظلمه وحتى يتخلص من أعدائه ومنافسيه، كما فعل السلطان تيراب في دارفور، بعثهم في جيش كثيف لمحاربة المسبَّعات في كردفان سنة ١٧٤٧م. ورغماً عن الهزائم التي لحقت بالفونج في مبدأ الأمر فإن الشيخ محمد أبو لكيلك الذى ظل يحكم كردفان نحو أربعة عشر عاماً تمكن من هزيمة المسبَّعات ونجح في بناء جيش قوي يطمئن لولائه له. (٧٩)

لما تمادى السلطان بادي ابو شلوخ في جبروته وعاث أبناؤه في البلاد ظلماً و فساداً إتفق "أهل الأصول" من الفونج مع أبي لكليك على عزل السلطان. فعاد أبو لكيلك إلى سنَّار وطرد السلطان بادي في سنة ١٧٦٢م وعين إبنه ناصر ملكاً بعده. وكان ذلك بداية لتسلط وزراء الهمج على دست الحكم، وظل وزراء الهمج يتوارثون الامر كحكام فعليين حتى سقوط سلطنة الفونج. (٨٠) والهمج يمثلون بقايا الشعوب الأصلية التي كانت تسكن جنوب الجزيرة عند قيام مملكة الفونج وظلوا نحو قرنين ونصف قرن تحت حكم الفونج. ويقول البعض إنهم خليط من النوبة والعرب، بينما تحدد بعض الروايات صلتهم بالعوضية الجعليين. وقد استفاد الهمج بقيادة زعيمهم محمد أبو لكيلك بن بندي بن كتو وهو من أتباع الوزير محمد ولد تامة من أهالي جند توت من ثورة الارستقراطية الفونجاوية، حتى مكَّن لنفسه ولأهله من الهمج .

بعد وفاة الوزير محمد أبي لكليك في سنة (١٧٧٦- ١٧٧٧م) حاول الفونج بقيادة السلطان إسماعيل ثم ابنه السلطان عدلان التخلص من حكم الهمج بقيادة بادي ولد رجب ولكنهم لم يفلحوا. وشهدت الأربعون سنة الأخيرة من حكم الفونج سلسلة من الحروب الأهلية والثورات الداخلية فلما زحف الجيش التركي

المصـري عـام (١٨٢ - ١٨٢١م)، لم يجـد مقـاومـة إلا من الشـايقـيـة في الشـمـال وخـضـعـت لـه البـلاد بعـد أن مـزقـتهـا الخـلافات القـبليـة وصـراعـات الفـونـج والهـمـج فيما بينهم.

الهوامش :

(١) كانت سنار مقراً لأحد نواب عمارة دونقس

(٢) ليس هناك ما يؤيد هذا الزعم في أي من المصادر الأخرى ، ولعله من بعض العبارات غير المسئولة التي تجعل الباحث يتشكك في صدق روبيني.

(٣) S.Hillelson " David Reubeni" *S.N.R.*, XVI, 1933 - 55-60

(٤) يرسمها نعوم شقير : ص ٦٧ (قلي)

(٥) مخطوطة فينا : ورقة ٢ أ - ٣ ب.

(٦) **مخطوطة كاتب الشونة** : ١٩,

(٧) تاريخ ملوك السودان , ٥

(8)A.E.R, "The Fung Drum or Nehas", *S.N.R.*, IV (1921), 211-212

(٩) أحمد بن الفكي معروف : ١٩٧ انظر أيضاً MacMichael, *Arabs*, II/346

(١٠) بسط الأستاذ الشاطر ملخص آرائه في هذا الموضوع في مقدمة **مخطوطة كاتب الشونة** (هـ-ز) وبتفصيل في دراسة أخرى لم تطبع بعد وله شكري علي سماحه لي بالإطلاع عليها وقد اعتمد في ذلك على (**كتاب الزنوج**).

(١١) ويرى الأستاذ حسين عبد الرحيم أن المسافة لا تقل عن نحو ١٤ يوماً في زمن الخريف ولا شك أن صعوبة تحديد الطريق الذي سلكه روبيني تجعل من المتعذر معرفة المدة التي قضاها في هذا الطريق .

(١٢) يوسف فضل حسن : "القتل الطقسي عند الفونج، **مجلة الدراسات السودانية** ٢/١ (١٩٧٠) ٣٦ - ٣٧
Evans-Pritchard "Ethonological Observation in Dar Fung" *S.N.R.*, XV (1932) 13 - 16 , 44.

(١٣) وذكر بروس في موضع آخر أن بلاد الفونج هي فازوغلي " , Bruce, VII, 87 Hillelson op.cit" *S.N.R.* XVI , 57-8.

(١٤) للتوسع في هذا الموضوع أنظر مقالي عن " Yusuf Fadl Hasan, The Umayyad Geneology of the Funj " *S.N.R.*, LVI, 1965, 27 - 32

(١٥) الشاطر يصيلي عبد الجليل ٢٩٦ - , ٢٧١

(١٦) مخطوطة كاتب الشونة: ٩ .

(١٧) النور عنقرة ٥٧٤ أو MacMichael, *Arabs* 11/36

(١٨) Yusuf Fadl Hasan, *Arabs* 29 - 30 , 173 - 174

(١٩) نسبة إسحاق محمد شداد / أو MacMichael, *Arabs*, II, 10-5

(٢٠) أحمد بن الفكي معروف ١٦٠م MacMichael, *Arabs* II, 436

(٢١) Bruce, vii, 90.

(٢٢) مخطوطة فينا ورقة ٣ أ

(٢٣) **طبقات ود ضيف الله** ٦١ - ٩٠ الخ.

(24) MacMichael, *Arabs*, II, 27 Tree Opposite page 145

(٢٥) ولعل النسابة قد أخطأوا عندما جعلوا لكير هذا وهو اسم الأسرة الحاكمة في دارفور صلة مع هذه القبائل وربما كان سواد البشرة هو الجامع بينها .

(26) Ludolphus, 87 , 388.

(٢٧) الشاطر بصيلي عبد الجليل: ٢٨ - ٣٤؛ Crawford, 146 - 155

(28) Crawford :147 Holt , " op.cit", *J.A.H.* IV,I. 45

(29) Crawford, 153

(٣٠) نشرت مخطوطة (كتاب الزنوج) بالعربية والإيطالية في كتاب:.Cerulli, *Somalia*
..1,233/252مخطوطة كاتب الشونة: و ، ز، وقد سمح لي الأستاذ الشاطر بالإطلاع على تفاصيل دراسته لهذا المشروع.

(٣١) أحمد عبد الرحيم نصر:, ٢٠

(٣٢) يوسف فضل حسن - القتل الطقسي عند الفونج - **مجلة الدراسات السودانية** ١/٢ و ٣٢-, ٣٣

(33) Bruce , VI, 370-72,VII, 96

(٣٤) **طبقات ود ضيف الله** : ٩٦ - , ٣٤٤

(٣٥) في عام ١٧٧٢ كانت اليس تابعة لملكة الفونج وتمثل معبراً هاماً تسيطر مكنه على كردفان .Bruce , vii, 910

(٣٦) مخطوطة كاتب الشونة: ٩ .

(37) Ogot, 1/44-5

(٣٨) نلاحظ أن كلمة الفونج تنطق أحياناً الفون كما هو في العيلة فونج أو العليفون ويعرف القوز الموجود بالقرب من بربر بقوز الفون أي الفونج ونلاحظ أ، هذا الصوت، الذي يصعب تحديد هويته ويغلب عليه صوت الجيم يهمل في بعض الكلمات مثل الهوج أو الهوى.

(39) Evans-Pritchard. " op.cit." *S.N.R.*, XV, (1932)58

(٤٠) شجرة نسب النور عنقرة ك ٥٦١ وشجرة نسب الجليلاب : ٤٣٦ أو MacMichael, *Arabs*, 11/27 and The Opposite Page, 145

(٤١) يوسف فضل حسن ، القتل الطقسي عند الفونج، **مجلة الدراسات السودانية**، مجلد ٢ عدد أول / ٣٢ - ٤٢

(42)Westerman, LVI; Crawford, 157

(43) Evans-Pritchard, op.cit., *S.N.R.*, XV,I-61

(44)A. J. Arkell, "More About Funj Origins", *S.N.R.*, XVII, 1946. 87-98

(45) H.R. Palmer, *History of the First Twelve Years of their Reign of Nau Idris Alooma of Bornu (1571-1585) By his Imam Ahmed Ibn Fartua.*

(46) Holt, " op.cit." *J. A.H.*; V.I, 40 - 42

(٤٧) رسمت في الأصل الكلوة.

(٤٨) أي الاصهار وهو تفسير خطأ والصواب الأونساب نسبة إلى أونسة جد الفونج، ولعلّ اشارة الغريب إلى الناس بأن "يحبسوا طعامهم حتى يجتمع كله ثم يفرق عليهم ويأكلون منه شئ. فيها مرجعه إلى الحديث الشريف الذي رواه الإمام زكريا يحى بن شرف النووي الدمشقي رياض الصالحين تحقيق عبدالعزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق، دار المامن للتراث، بيروت ١٩٩٤، ص. ٢٦٥ عن وحشي بن حرب رضي اللّه عنه أن أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قالوا يا رسول اللّه إنّا نأكل ولا نشبع، قال "فلعلكم يفترقون" قالوا نعم قال فاجتمعوا على طعامكم وأذكروا اسم اللّه، يبارك لكم فيه. "رواه أبو داؤود".

(٤٩) الأسرة الحاكمة بين البني عامر وقد وفد جدهم من ديار الجعليين

(50)Holt, " op.cit." *J.A.H.* IV.I.49-55

(51)L.F. Nadler. " Fung Origins". *S.N.R.*, XIV , 1931 , 63 - 64

(٥٢) ورد هذان اللفظان في مخطوطة بتوقيع السلطان عدلان بن محمد الذي عاش في أواخر القرن السابع عشر انظر الشاطر بصيلي عبد الجليل، ١٦٢ - ٢٦٢,

(٥٣) جاء في واضح البيان في ملوك العرب بالسودان ص ٢ انها كاب بلول أو فوجه انظر ايضاً سيرة ملوك العبدلاب ص ٦

(٥٤) صلاح محي الدين: "مخطوطة تاريخية عن العبدلاب"، **مجلة الخرطوم**، بالمجلد ديسمبر ١٩٦٧، ص ,٥٨

(55)De Cadalvene et de Breuvery . 1, 200

(56)P.M. Holt, “Sultan Selim I and the Sudan” *J.A.H.*, VIII, (1967),19-20.

(٥٧) واضح البيان ٣ - ٤ أحمد عبد الرحيم : ٣١ - ٣٣ ؛ Paul , 77.82

(٥٨) واضح البيان: ٢,

(59)Holt, *Sudan*, 19 - 20

(٦٠)أي الفونجية نسبة إلى الفونج والصيغة التي أوردناها هي الشائعة في السودان

(٦١) نعوم شقير : ٤٢٤ -, ٤٣١

(62)Bruce, IV, 368.

(٦٣) **مخطوطة كاتب الشونة**: ٩ - ١٠ أبو سليم , ٤١

(٦٤) انظر الفصل الخامس.

(٦٥) انظر الفصل الخامس.

(66)Crawford, 180-187; Merid Wolde and Habilie Selasie, “Sudanese Ethio-

pian Relations Before the 19th Century". *Sudan in Africa*, 63-4.

(٦٧) **مخطوطة كاتب الشونة**:, ٢٢

(٦٨) ابو سليم : ٤٠ – ٤١ – ٤٥ ؛ نعوم شقير ٤٢١ – ٤٢٣ ؛ Bruce, VI/391

(69) Bruce, VI, 391

(٧٠) واضح البيان: ٣ .

(٧١) **مخطوطة كاتب الشونة** : ٩ – ١٠ .

(٧٢) المصدر السابق : ١٨ – ٢٠ .

(٧٣) واضح البيان : ٢-٣ .

(٧٤) **تاريخ ملوك السودان**: ٢ .

(٧٥) **طبقات ود ضيف الله**.

(٧٦) **مخطوطة كاتب الشونة** : ٨ – ٩ .

(٧٧) **طبـــــقـــــات ود ضـــــيـف الـلـه** :، Crawford,193- 5,Nichols,14-15,MacMichael,*Arabs*,296 1,216.6

(٧٨) انظر بعض التفسيرات الغيبية في ص ٢٢٧ من **طبقات ود ضيف الله**

(٧٩) **مخطوطة كاتب الشونة** : ٢٠ – ٢٥ .

(80)Holt , Sudan , 22

الفصل الرابع

سلطنة الفور

سلطنة الفور

نشأتها وتطورها

قامت مملكة الفور على الأطراف الغربية من السودان الشرقي في أواسط القرن السابع عشر، وهي تمثل واحدة من سلسلة الممالك الإسلامية المنبثة في أواسط بلاد السودان إذ تلتقي معها في كثير من سمات الحكم والنظم الإدارية. وأقرب هذه الممالك وأهمها من الغرب مملكة وداي. وينتشر بينها وبين سلطنة الفور عدد من الممالك الصغيرة شبه المستقلة والتي تتأرجح في ولائها بين الاثنتين.

يفصل بين دارفور وكردفان تلال رملية، وكانت كردفان أو أطراف منها تدين بالولاء للفور مرة وللمسبّعات مرة وللفونج مرة أخرى ولهذا السبب كانت مصدر حروب عديدة. وتمثل الصحراء الليبية ومستنقعات بحر الغزال حدوداً طبيعية من الشمال والجنوب على التوالي. وفي المنطقة الوسطى حيث يلتقي عدد من الطرق التجارية الهامة يقع جبل مرة الذي اقترنت نشأة الأسرة الحاكمة به وصار ملاذها في ساعات ضعفها ومتى حاقت بها الأخطار. وكانت هذه الطرق مصدر هجرات قبلية ورحلات ومؤثرات ثقافية هامة أثرت بطريق أو آخر في المجتمع القبلي المغلق.

بداية تاريخ دارفور السياسي غامض ومضطرب نسبة لقلة المصادر التي تؤرخ للفترة التي سبقت قيام سلطنة الفور وشهدت تسلط الداجو والتُّنْجُر وهجرة القبائل العربية من المنطقة الواقعة شمال شرق دارفور وانتشار كثير من مظاهر الثقافة الإسلامية من الشمال ومن الغرب.

ترجح الروايات الوطنية أن الداجو وهم من أقدم سكان دارفور، أول من أسس دولة في دارفور. وكانوا يحكمون دارفور خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر إلى أن فقدوا السيطرة على الطرق التجارية للتُّنْجُر الذين بسطوا

نفوذهم على المنطقة الوسطى في نحو أول القرن الخامس عشر. وتفرق الداجو وانحسر أكثرهم وظلوا يسيطرون على المنطقة الواقعة شرق وجنوب شرق جبل مرة وتوجد هناك بعض الآثار التي تنسب إليهم. والداجو كالتُنْجُر والفور لم يتخذوا لهم عاصمة واحدة بل كثيراً ما تنقلوا من موقع لآخر.(١)

تختلف الآراء حول أصول التُنْجُر ومنشأ مملكتهم ويزعم بعضها أنهم عباسيون من منطقة دنقلا، وتدعي أخرى أنهم من بني هلال، ويرجح أن لهم صلة بالبديات، أحد فروع قبيلة التيبو. وفي تاريخ يصعب تحديده نجح التُنْجُر في بسط نفوذهم على دارفور وأجزاء من وداي.

وفي أيام عظمتهم التي ربما شملت القرنين الخامس عشر والسادس عشر أخذ الإسلام في الانتشار في بطء شديد، وربما على أثر وصول موجات الهجرة العربية في سهول دارفور الجنوبية، وهم من عرفوا "البقارة" ففصلوا بين الشمال والجنوب جاعلين فاصلاً بين سكانها الأصليين. واختلط البقارة بالسكان الوطنيين كثيراً حتى غلب السواد على سحنتهم، ومن هؤلاء المسيرية والرزيقات والهبانية وبني هلبة. والبقارة كمعظم العرب الرحل في السودان الشرقي وأواسط بلاد السودان ينتسبون إلى عبدالله الجهني أو قبيلة جهينة. وفي الشمال استقرت مجموعات أخرى ممن يحترفون تربية الإبل. ومعظمها تنتمي إلى فزارة كالمجانين وبني جرّارَ وبني عمران والمحاميد.

في أواخر القرن السادس عشر وبعد فترة اضطراب شديدة لازمت احتلال البرنو القصير لدارفور. بدأ الفور بقيادة الكيرا، وهم فرع من الكنجارة وهي واحدة من قبائل الفور الرئيسية(٢) في توطيد زعامتهم وانتزاع السلطة من الداجو والتُنْجُر.

والفور شعب شبه زنجي مجهول الأصل. ويرجح بيتون أنهم مزيج من الزنوج و"الحاميين". وقدم آركلّ تفسيرين لهذا اللفظ: أولهما أنهم أبناء فِر Fir أخو

فِيرات جد كثير من قبائل بحر الغزال مثل الفروق وكرا، وبنقا والتي يطلق عليها جميعاً اسم الفرتيت. والرأي الثاني أن الفرتيت كانوا يسكنون غربي جبل مرة ونزحوا إلى بحر الغزال على أثر ضغط سلاطين الفور المسلمين، ويقول آخرون إنهم جزء من النوبا.(٣)

يكتنف تاريخ منبت الكيرا أو الأسرة المالكة شيئ من الغموض وذلك لندرة المصادر الوطنية، ومعظم ما جاء عن تاريخ مملكة الفور هذه هو تسجيل للروايات الشفاهية التي جمعها براون (١٧٩٣- ١٧٩٦م) ومحمد بن عمر التونسي (١٨٠٣- ١٨١١م) ودي كادليفان ود بروفري (١٨٢٩م) وناختيقال (١٨٧٤م) وسلاطين (١٨٨١ - ١٨٨٢م) ونعوم شقير الذي جمع معلوماته من الشيخ الطيب إمام مسجد السلطان إبراهيم، وقد مات سنة ١٩٠٢م وما ألفه ماكمايكل وآركلّ اعتماداً على تلك الروايات وما جمعوه مؤخراً.(٤)

تختلف الروايات التي تؤرخ لنشأة مملكة الفور في التفاصيل إلا أنها تتفق في المغزى ومن مظاهرها العامة أنها تعطي البطل نسباً عربياً صريحاً وترمز إليه "بالغريب الحكيم" ذي الفطنة والرأي السديد، ولهذا يعجب به السلطان فيزوجه ابنته، ويُعْهَدُ لابنه منها بالملك. وخير مثال لذلك ما رواه نعوم شقير وسلاطين. يقول الأول إنه بعد سقوط الدولة العباسية وتفرق أمرائها ذهب شقيقان منهم ويدعيان على وأحمد سفيان إلى تونس (ولعل صلته بتونس هي التي جعلت النسَّابة يربطونهم ببني هلال، الذين اشتهروا بغزو شمال أفريقيا). وكان على متزوجاً من فتاة جميلة فراودت أحمد سفيان، وكان وسيماً، عن نفسها فتمنع، فشكته إلى أخيه. وبينما هم في بعض أسفارهم عقر (علي) أخاه وتركه في قارعة الطريق دون أن يقتله. فلحق به بعض خدمه فتعهدوه إلى أن شفي، واشتهر من حينها بأحمد سفيان "المعقور". وسار أحمد في طريقه إلى أن بلغ جبل مرة، حيث وجد أمةً من شبه السود عرفت بالفور وعليهم ملك اسمه شاو دورشيت، وكان كأهله لا يخلو من السذاجة والجهل. فعلمه أحمد بعض آداب

السلوك والنظام، ومن ثَمَّ عهد إليه الملك بتدبير المملكة ورعاية شئونها. فأكمل ذلك على خير وجه. فأحبه الملك وزوجه من بنته الوحيدة (وقيل اسمها خيرة)(٥) التي ولدت له ولداً نجيباً سماه سليمان، فلما مات جده شاو دورشيت نادى به أهل الحل والعقد سلطاناً عليهم وكان ذلك سنة ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤- ١٤٤٥م.

وتضع بعض الروايات ، مثل روايات سلاطين، الملك كورو آخر ملوك الداجو، وهو وثني، في مكان الملك شاو دورشيت وتزعم أن علياً وأحمد من زعماء قبيلة التُنْجُر العربية التي وفدت من تونس حتى بلغت جبل مرة. وتحكي هذه الرواية كيف أن الملك كورو رغم ما به من فظاظة وغلظة إهتم بأمر أحمد، بعد أن عقره علي أخوه، وعهد إليه بإدارة شئون بلاده فأحسن الأداء. ومن الطريف أن أحمد غَيّر من آداب أكلهم البربرية إذ اعتادوا أن يأكلوا كل ما تقع عليه أيديهم وفي أي وقت، فجعل لهم نظاماً دقيقاً وميقاتاً لوجبات الأكل فكثر الرخاء ورفرف السلم ألويته فأحبه الملك وزوجه من بنته فلما دنت ساعة موته عين أحمد المعقور خليفة له. وآل الأمر من بعده إلى عدد من أحفاده ومنهم السلطان دالي وأمه من الكيرا، فرع من الكنجارة القبيلة الفوراوية، الذي اشتهر بوضع **كتاب دالي** وهو قانون ينظم إدارة شئون البلاد وقواعد اعتلاء العرش.(٦) ومن أشهر أحفاد أحمد المعقور السلطان سليمان الذي أنجبته أم عربية وتزوج من امرأة عربية فعرف بسولونق أي العربي .

وتختلف رواية دي كادلفان ودي بروفري عن هذا المضمون إذ تروي أنه في نحو سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م قدم أحمد المعقور وهو عربي من قريش من سلالة الفضل بن العباس عم النبي محمد صلي اللّه عليه وسلم والذي ينتسب إليه بعض عرب السودان مثل رفاعة وأولاد فضل والجعليين. ونجح أحمد بمعاونة بعض البدو في غزو دارفور وكردفان ونشر الإسلام فيهما. ويعطي دي كالفان ودبروفري قائمة مكونة من خمسة وعشرين ملكاً تبدأ بأحمد المعقور الذي اعتلى العرش سنة ٨٥٢هـ ١٤٤٨م وتنتهي بالسلطان محمد الفضل.(٧)

تحتم علينا غلبة الروايات الشفاهية وتناقضها الذي تنبه إليه المؤرخون من قبل، وغموض الفترة التي سبقت عهد سليمان، أن نأخذ ما ذكر عن تلك الحقبة بحذر شديد. ونلاحظ أن تواتر أسماء أحمد المعقور ودالي وسليمان سولونق في هذه الروايات يلقي ضوءاً من الحقيقة لا يمكن تجاهله. فأحمد المعقور الذي تصفه الروايات بأنه عربي من بني هلال أو بني العباس (الجعليين) يرمز للقاح الذي تم نتيجة الهجرة العربية من بلاد العرب مع التُنْجُر أو الفور، وهو الغريب الحكيم الذي أتي بالإصلاحات الاقتصادية وبث الأمن والسلام. أما حفيده دالى أو (دليل بحر أو إبراهيم الدليل) الذي أعتبره نعوم شقير أحد كبار الخصيان، ومنظم الدولة الذي نسب إليه تقسيمها إلى خمس مقاطعات ومُشرِّع قانونها، ليس إلا شخصية تاريخية تجسمت فيها تقاليد الحكم عند الكيرا قبل مجئ الإسلام كما أبان هولت. أما سليمان سولونق Solong وجمعها Solonga أي العربي باللغة الفوراوية. فهو شخصية واضحة في تاريخ الفور. فإن لم يكن عربياً فهو خليط من العرب والفور. وربما كانت نسبته الصحيحة إلى قبائل فزارة التي كانت تقطن في شمال شرق دارفور. ويؤكد هذا ما رواه التونسي أثناء وجوده في وداي في سنة ١٨١١م: وهو أن صالح مؤسس مملكة وداي وسليمان سولونق ومسبّع جد المسبّعات، كانوا اخوة ومن قبيلة فزارة، وأن تلك الممالك كانت قد نشأت في وقت واحد. ويؤكد أوفاهي الذي توفرت له دراسة تاريخ الفور من مصادر متعددة أن النظام السياسي (والتواريخ المتأخرة) لممالك الفور ووداي والمسبّعات كان متطابقاً، خاصة وأن المملكتين الأخيرتين كانتا تحت سيطرة الأولى لفترة إبان عظمتها. ونجد في بعض الروايات ما يرجح أن مملكتي الفور ووداي تأسستا على أيدي مسلمين مستعربين قدموا من وادي النيل وهم يعرفون بالجعليين أو العباسيين.(٨)

وسليمان سولونق إن لم يكن مؤسس دولة الفور في أواسط القرن السابع عشر فهو أول سلاطين الفور إهتماماً بنشر الدين الإسلامي بطريقة منظمة.

ويصفه نعوم شقير: "قيل إنه لما تولى السلطنة لم يكن في جبل مرة مساجد للعبادة فبنى المساجد وأقام صلاة الجمعة والجماعة ثم شرع في ضم كلمة المسلمين".(٩) ولكن نشر الإسلام بين الفور كان عملية بطيئة جداً. وتوضح الأخبار التي جمعها التونسي عن عادات الفور بقاء كثير من مظاهر الوثنية بينهم حتى القرن التاسع عشر. ويقول عن سكان جبل مرة إنهم "لا يعرفون من العربية إلا كلمتي الشهادة، ويقولونها مقطعتين مع العجمة القبيحة".(١٠)

وقد اختلفت الأخبار عن بداية عهد سليمان سولونق فذهب براون إلى القول بأنه حكم بنحو ١٣٠- ١٥٠سنة قبل زمنه أي بين عام ١٦٤٠م - ١٦٦٠م. ويؤرخ التونسي لقيام تلك المملكة بنحو ٢٠٠ سنة قبل عهده أي نحو ١٦٤٠م. ويجعل تقويم دي كادلفان ودبروفري سنة ١١٠٠هـ/١٦٨٨م بداية ذلك، وهو فيما يبدو متأخر قليلاً. ويتأرجح تقويم نعوم شقير بين سليمان الأول ٨٤٨ - ١٤٤٤/٨٨٠-١٤٧٦م وسليمان الثاني ١١٠٦ - ١٦٩٥/١١٢٦ - ١٧١٥م. ولا شك أن التاريخ الأول جد متقدم وربما قصد به أحمد المعقور، أما تاريخ سليمان الثاني فينسحب عليه ما قلناه عن تقويم دي كالفان ودبروفري. ولا ريب أن التاريخ الذي ذكره ناختيفال أي ١٥٩٦م هو الآخر متقدم جداً ومن ثم فإنني أميل إلى قبول ما ذهب إليه التونسي وبراون من أن عهد سليمان سولونق قد إزدهر في نحو سنة ١٦٤٠م - ١٦٦٠م وهو تاريخ يجد قبولاً عند كثير من الباحثين.(١١) وظلت سلالة الكيرا تحكم دارفور منذ أواسط القرن السابع عشر حتى قضى عليها الزبير باشا رحمة المنصور في معركة ماناواشي في ٢٤ اكتوبر ١٨٧٤م. إلا أن تقاليد الحكم المستقل عند فور جبل مرة ظلت تعارض الحكم التركي المصري إلى أن تمكن السلطان علي دينار من استرداد حكمه سنة ١٨٩٩م وظل يحكم تلك المملكة العتيقة وهو يدافع عن استقلالها حتى ضمت دارفور للسودان الانجليزي المصري علي يد البريطانيين سنة ١٩١٦م.

وما أن ورث السلطان سليمان سولونق عرش الفور متخذاً من جبل مرة

منطلقاً له حتي استعان بعرب البادية المنتشرين في بلاده، مثل ما فعل عمارة دونقس في سنَّار، في توطيد أركان مملكته وتوسيع رقعتها. ويقال أنه وَحَّد الفور وهزم الشعوب التي تسكن حول جبل مرة ثم طرد بقايا التُنْجُر الذين كانوا يسعون لاسترداد ملكهم. ويبدو أنه إستعان بعرب الهبانيةوالرزيقات والمسيرية والتعايشة وبني هلبة والمعالية والحمر والزيادية والمحاميد وبنو حسين بعد أن حالفها لخوض معاركه ضد البرقو والزغاوة والبيقو والبرتي وبعض المساليت.[١٢] ودفن السلطان سليمان بطُرَّه في جبل مرة. ويبدو أن طُرَّه صارت تضم مقابر الأسرة منذ ذلك الحين.

ظل الضباب الكثيف الذي لازم نشأة هذه الدولة يكتنف إنجازات خلفاء السلطان سليمان إذ لا نعرف الكثير عنهم، إلاّ أنه من المرجح إنهم قد ساروا علي سياسة مؤسس الدولة التوسعية. واقترن اسم خليفته الثاني أحمد بكر (حكم من أواخر القرن السابع عشر حتى عام ١٧٣٢م)، الذي أنجب عقباً كثيراً قيل أنهم بلغوا نحو المائة اعتلى خمسة منهم عرش الفور، بموجة التوسع والتنظيم الكبيرين.[١٣]

ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر دخل الفور في حروب طاحنة مع سلطنة وداي وكان للأخيرة الغلبة. وفي واحدة من تلك الاشتباكات بين محمد جودة سلطان وداي والسلطان عمر محمد دوره أو عمر ليلى (أي الحمار وقيل لقب بذلك لعناده وشراسته؛ ١٧٣١ - ١٧٣٩م) لقي الأخير حتفه واستمر خلفه، أبو القاسم بن أحمد بكر (١٧٣٩ - ١٧٥٢م) على سياسة سلفه. ويقال إن أبا القاسم اتخذ من الرقيق السود جنداً له، وحاباهم ومكن لهم في وظائف الدولة دون الأحرار أو المقاتلين الذين يجندون من القبائل الأخرى. فأغضب فعله ذلك أهله فكرهوا عهده. ويبدو أن سلسلة المعارك التي دارت بين مملكتي الفور ووداي قد كشفت للسلطان أبى القاسم فشل نظام الجيش الفوراوي الذي كان يعتمد على ما يجند في شكل ضريبة تجبى من سائر قبائل المملكة. ومن ثم

حاول إنشاء جيش جديد يكون ولاؤه للسلطان دون سواه. وقد أثار هذا التغيير الجذري في تنظيم الجيش حفيظة كثير من الأمراء والقواد وأصحاب المصلحة في النظام القديم.

ويبدو أنهم حسنوا له الخروج للانتقام لمقتل سلفه فلما كان في ساحة المعركة في وداي تخلى عنه القواد والجيش التقليدي وتركوه ليخوض المعركة مع رقيقه. فهزم شر هزيمة وقيل إنه قتل في تلك الحرب. وقيل إنه اختفى من المعركة دون أن يناله أذى ولكنه تنحى عن العرش لصالح أخيه السلطان محمد تيراب (١٧٥٢ - ١٧٨٧م). وما زال رجال الدولة يلحون على تيراب حتى أمر بخنق أخيه على يد رجل يدعى "وير".[١٤]

أقنعت تلك الهزائم المتلاحقة وازدياد نفوذ سلطنة وداي السلطان تيراب، وكان يكره الحرب ويؤثر حياة الترف، أن يسعى للسلم بينه وبين السلطان محمد جودة. فحل السلام بين البلدين إلى حين. ولكن السلطان تيراب لم يهمل نواة الجيش التي ابتدرها أخوه، وسار على خطاه حتى خلق جيشاً نظامياً يطلق عليه اسم "كوركوا" أو حاملي الحراب، بلغة الفور. ودأب على جلب الرقيق من بلاد التروج (أي منطقة تقلي بجبال النوبة) والدادنقا من دار تاما.[١٥] ولا شك أن هذا التوسع في الاعتماد على الرقيق كجنود وموظفين أو إداريين كانت له أخطاره، إذ أدى إلى خلق نوع من التوتر بين السلطان والزعامات التقليدية في المملكة خاصة العسكريين وقادة الجيوش القبلية الذين أحسوا بأن وضعهم التقليدي وهيبتهم صارتا مهددتين بالزوال.[١٦]

كان من أبرز من انخرطوا في سلاح "الكوركوا" الخصي محمّد كُرًّا الذي أظهر تفوقاً وإخلاصاً في عمله حتى عينه السلطان تيراب "سرميندقله" له أي كاتم أسراره ومبعوثه الخاص، وهي درجة رفيعة وأعظم مقاماً من رئيس الكوركوا. وما زال محمّد كُرًّا في ترق حتى بلغ أعلى الدرجات وصار بمثابة كبير الوزراء أو الوزير الأعظم.[١٧]

وكما لاحظنا من قبل فإن السلطان تيراب كان يؤثر السلم وحياة الترف. وقد انعكس ذلك على سلوكه العام فلقب تيراباً (أي بذور أو تقاوي) لكرمه ولحلمه، ولإتسام عهده بالخصب والدعة والرخاء. وكان فيه شئ من المجون وحب اللّهو والزينة، ولكنه كان يؤثر أقرباء أزواجه، وكن كثراً، وعهد لهم بالمناصب الرفيعة، خاصة أخوال ابنه إسحاق. ولعل مما بغض الناس في حكمه في آخر أيامه تسلط أبنائه وكان له اكثر من ثلاثين ولداً فكانوا يغتصبون من الناس حقهم ويكلفون الرعية ما لا تطيق. يؤثر ابنه إسحاق الذي لقب بالخليفة بسبب تعيينه خليفة له، كما أبقاه خليفة له في دارفور عند سفره لحرب المسبعات في كردفان.

ليس في هذا التعيين ما يتنافى مع العرف الفوراوي إلاّ أن السلطان تيراب كان يعلم بغض الناس لأبنائه ويعلم أنه بفعله هذا قد تجاهل وصية والده الذي جعل الأمر لسائر أبنائه من بعده. فلما بلغه تحرش هاشم المسبّعاوي،[١٨] سلطان كردفان، وهو ممن تربطهم صلة القربى بالكيرا [١٩] بحدود دارفور الشرقية بغية السيطرة عليها، قرر أن يغتنم تلك الفرصة متظاهراً بحرب المسّبعات، ولكنه قصد أن يقحم سائر اخوته ومعارضي الولاية لابنه في تلك الحرب حتى يهلكوا وينفرد ابنه إسحاق الخليفة بالملك.[٢٠]

ومهما تكن أسباب هذه الحرب فان انتصارات سلطنة وداي المتعاقبة على ملوك الفور لم تدع لهم فرصة للتوسع على حدودهم الغربية، بل لم يكن بد من الاتجاه نحو الحدود الشرقية إذا أرادوا أن يسيروا على نهج سياستهم التوسعية التقليدية وإذا شاءوا أن يسيطروا على مصادر الرقيق من بلاد التروج في كردفان.[٢١]

وخرج السلطان تيراب في نحو عام ١٧٨٥م في جيش عرمرم، ومعه حاشية كبيرة من أخوته ولاة العهد، والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة وحريم السلطان والخدم وترك ابنه إسحاق الخليفة نائباً عنه في عاصمته ريل بدارفور. ولما

تسامع أتباع السلطان هاشم المسبّعاوى بقدوم هذا الجيش الكثيف تفرقوا عن زعيمهم ، وفر هو وأهله وحاشيته هاربين الى سنّار، حيث التجئوا لسلطان الفونج. وخلا الجو إلى الفور واحتلوا كردفان. ولم تفلح محاولة السلطان تيراب اللِّحاق بالسلطان هاشم؛ ووجد نفسه في ديار العبداللاّب بالقرب من أم درمان. ولما منعه العبداللاّب عن ارتياد النهر حاربهم وهزمهم شر هزيمة، وغنم نحاسهم المسمى بالمنصورة وهو من شارات الملك عندهم. ولما يئس أصحابه من الانتظار، وفشل هو في عبور النهر لتعقب هاشم المسبّعاوى قرر العودة إلى بلاده؛ ومات فى بارا، مسموما. وحمل جسده محنطا إلى طُرَّه حيث دفن في مرقد آبائه.

قيل إن مملكة الفور اتسعت في عهده اتساعا لم تشهده فى تاريخها فكان حدها من الشمال بئر النطرون ومن الجنوب بحر الغزال ومن الشرق نهر النيل (أي شواطئ النيل الأبيض المتاخمة لكردفان) ومن الغرب مضيق ترجه الذي يفصل بينها وبين وداى[٢٢].

وبموت السلطان تيراب نشبت حرب أهلية حول اعتلاء العرش بين مشايعى إسحاق الخليفة، ومشايعى أبناء أحمد بَكُر. والتف الآخرون وجلهم من الساخطين على تسلط السلطان تيراب وهيمنته على شؤون الدولة وتمكينه لبطانته فيها، بقيادة محمد كُرَّا حول أصغر أبناء أحمد بكر، الأمير عبد الرحمن. وكان عبد الرحمن، على نقيض إسحاق الخليفة، وهو ابن أخت كوبى سلطان الزغاوة، يفتقد أي تأييد قبلي أو سند سياسي من مراكز القوة المختلفة فى الدولة لهذا آثره معارضو سياسة والده من الأعيان ورؤساء الجيش ونجحوا في تنصيبه سلطاناً على الفور. ولم يستتب له الأمر إلا بعد وقائع كثيرة انتهت بمقتل إسحاق الخليفة .

وكافأ السلطان عبد الرحمن الرشيد، محمّد كُرَّا، وعينه في أعظم الوظائف وأجلها وخلع عليه لقب أبو شيخ دالي، ويأتي حامله بعد السلطان في رتبته

ونفوذه. وظل محمد كُرًّا يتبوأ هذا المنصب الرفيع من نحو سنة ١٧٩٠ إلى ١٨٠٣م. وكان يتمتع بسلطات واسعة حتى صار أقوى رجل بعد السلطان. ويقال إن هذه الوظيفة بمثابة كبير الوزراء وأن عبد الرحمن الرشيد كان أول من أدخل وظيفة الوزير في الدولة .

ولم يبق محمّد كُرًّا طويلاً في معيِّة السلطان حتى بعثه في جيش كبير إلى كردفان لرد هاشم المسبّعاوي عنها فطرد هاشم شر طردة، وبقى يحكم تلك المنطقة لمدة سبع سنين إلى أن استدعاه السلطان ليوجه شئون البلاد من الفاشر.(٢٣)

وما إن استتب الأمر للسلطان عبد الرحمن الرشيد حتى انتقل إلى الفاشر الواقعة على خور تندلتي شمال شرق جبل مرة، واتخذها حاضرة لمملكته في سنة ١٧٩١ - ١٧٩٢م. والفاشر معناها القصر الملكي، أو مجلس السلطان. ولما كانت مجالس السلاطين تعقد عادة أمام القصر في ميدان عام فقد أطلق لفظ الفاشر على ذلك الميدان وعلى السوق الواقع فيه، ومن ثَمَّ صار هذا اللفظ يعني مقر الملك أو حاضرة البلاد. ولم يألف سلاطين الفور الاستقرار في موضع واحد من قبل، فقد كان مقر السلطان عبد الرحمن الرشيد من قبل في فاشر قرلي، وكان السلطان محمّد تيراب يسكن بالريل، بينما اتخذ إسحاق الخليفة جديد رأس الفيل فاشراً له. ويختار الفاشر دائماً في موقع استراتيجي: على طريق تجاري أو حيث تكثر المياه. ويلاحظ أن العاصمة أخذت تتحول من الغرب إلى الشرق تدريجياً، ولعل هذا الانتقال يعكس اهتمام السلاطين المتزايد بشئون كردفان وما يجري في حوض النيل.(٢٤)

بلغت سلطنة الفور أوج عظمتها في عهد عبدالرحمن الرشيد الذي اشتهر بالعلم والعدل. وانفتحت البلاد في عهده لمؤثرات خارجية كثيرة؛ فقد شجع السلطان هجرة سكان وادي النيل من الجعليين والدناقلة الذين أصاب حياتهم

المعيشية بعض الفتور من جراء التدهور الذي لحق بمملكة الفونج في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر. واشتغل هؤلاء بنشر تعاليم الدين الإسلامي والعمل في التجارة خاصة الجلاّبة الذين لا تتطلب عملياتهم التجارية رأس مال كبير. وقد ركز هؤلاء عملهم في تجارة الصمغ والعاج والرقيق والذهب. وحقيقة الأمر أن هجرة سكان وادي النيل من النوبة والنوبة المستعربين كانت مستمرة على مر القرون لأسباب اقتصادية وسياسية. وقد اضفى تشجيع السلطان عبد الرحمن للعلماء "والفقرا" (أي المتصوفة) مسحة إسلامية على الدولة. ومن هؤلاء والد الرحالة محمد عمر التونسي، والفكى التمرو الفلانى، والشيخ حسين العمارى الأزهري، والشيخ عز الدين وهو ممن هاجر من سودان وادي النيل وكذلك حسن الأحمر الجعلى الذي نزل بالقرب من حفرة النحاس في القرن الثامن عشر. وكان من مظاهر تشجيع العلماء "والفقرا" إغداق الهبات عليهم وإقطاعهم الأرض "أو الحواكير" كعادة ملوك سنّار.

وممن نالوا هذا التقدير عائلة الجامعي في جديد السيل وعائلة الفكى إدريس هدوج فى منطقة الفرش ومالك الفوتاوى فى منطقة كريو. ولم يكن السلطان عبد الرحمن أول من شجع هذا النهج الإسلامي فى نشر العلوم الإسلامية والاقتباس من النظم الإسلامية فى إدارة البلاد، فقد بدأت تباشير هذه السياسة في عهد والده السلطان أحمد بَكُر الذي شجع الوافدين من باقرمى وبرنو على الاتجار مع بلاده والاستقرار فيها، كما بنى المساجد والمدارس. ومن ثم انكسرت شوكة الوثنية، وازداد نفوذ الدين الإسلامي.

كما أن الصلات التجارية القائمة بين دار فور وجيرانها من البلاد الإسلامية قوت من نفوذ المسلمين ومهدت لانتشار الثقافة الإسلامية.[٢٥] وخلق نوع من الوحدة داخل سلطنة الفور.

ازدادت صلة الفور بالعالم الخارجي زيادة ملحوظة. فقد بعث السلطان عبد الرحمن بهدية من العاج والريش إلى الخليفة العثماني بأسطنبول، وشكره

الخليفة بخطاب رقيق ولقبه بالرشيد. ثم هنَّأ السلطان عبد الرحمن القائد الفرنسي نابليون بونابرت عند انتصاره على المماليك الذين كثيرا ما ضايقوا قوافل دار فور التجارية عند وصولها لمصر. ورد عليه نابليون طالباً بعض الرقيق. كما لجأ إليه أحد المماليك ويدعى زاونه كاشف في عشرة من أتباعه، إلاّ انه أظهر الغدر وقتل شر قتلة. وفي عهده زار البلاد الرحالة الإنجليزي و. ج. براون ١٧٩٣- ١٧٩٦م ، وكان ذلك كله نتيجة اتساع نطاق التجارة وانتشار الأمن.[٢٦]

لاحظنا في أول هذه النبذة أن سلطنة الفور كانت تتوسط ثلاثة طرق تجارية رئيسية. وليس قصدي أن أُفصِّل في هذا الموضوع في هذا المقام بل يكفي أن نتعرض للسمات الرئيسية لهذه التجارة وكيف أسهمت في تطوير دولة الفور الناشئة .

أهم هذه الطرق هو "درب الأربعين" أو "طريق الأربعين يوماً" الذي يصل بين أسيوط في صعيد مصر وكوبي الواقعة شمال غرب الفاشر ماراً بواحتي الخارجة وسليمة. وهو طريق آمن إذا ما قورن بطريق دنقلا أو صحراء العتمور، إذ يسير في صحراء قاحلة ليس فيها من البشر إلاّ القليل. ويبدو لي أن هذا الطريق قديم جداً إلاّ أن أول شاهد خطي علي وجوده يرجع إلي سنة ١٦٩٨م، ووصفه بدقة كلاً من براون والتونسي.[٢٧] وكانت أهم صادرات دارفور عن هذا الطريق هي الرقيق والعاج وريش النعام والصمغ والنحاس والذهب، ومنه يتدفق من الواردات: المنسوجات القطنية والحريرية والسجاد والأسلحة كالسيوف والبنادق، والحلي بأنواعها ، والخرز وغيرها من "الكماليات". وكان معظم الرقيق يجلب من القبائل الوثنية التي تسكن في جنوب دارفور أو منطقة بحر الغزال. وكان البقارة والفلاني كثيراً ما يعملون للحصول على الرقيق إما لبيعه أو دفعه في شكل إتاوة للدولة. وذكر براون أن القافلة كانت تتكون من ألفي جمل وألف عبد، إلا أن أوفاهي، اعتمادا على بعض المصادر الفرنسية، ذكر أنها تتراوح بين

الخمسة آلاف وستة آلاف عبد، وكانت تفد عن طريق الأربعين إلى مصر. وذكر التونسي أن ما يصدر من دارفور لمصر يبلغ عشرة إلى خمسة عشر آلاف بعير "سنوياً".(٢٨)

أما الطريق الثاني فيبدأ من غرب بلاد السودان وبرنو ووداي الى كبكية المركز التجاري المهم ومنه إلى كردفان فسنّار، فشندي، فالبحر الأحمر إلى مكة والمدينة ويحمل هذا الطريق غير البضائع العادية الحجيج من برنو وباقرمي وغيرهما في طريقهم إلي الحجاز وكثيراً ما استقر هؤلاء في أثناء ترحالهم، ولم يرجعوا إلي ديارهم الأولي.

ويربط الطريق الثالث دارفور بتونس وطرابلس وقد بدأت أهمية هذا الطريق في النصف الثاني من القرن الثامن عشر خاصة بعد أن أهتم السلاطين بالحصول على الأسلحة من شمال أفريقيا. وكانت القوافل تخرج مرة في السنة تحمل البضائع والرقيق.

صارت هذه القوافل التجارية مصدر دخل كبير للدولة من ناحيتين أولاً: كانت المكوس تجبى في نقاط جمركية على أطراف المدن التجارية المهمة مثلا كوبي، إذ كانت الدولة تفرض العشر على سائر السلع والخمس على الرقيق. وثانياً: كان السلطان نفسه أكبر ممول لهذه العمليات التجارية، فقد كانت كل قافلة تخرج لمصر تحمل قدراً كبيراً من تجارته. وكان يرسل مواليه وأعوانه للاتجار له في مصر والبلاد المجاورة لملكته. وفوق رأس المال الكبير كانت تلك الرحلات التجارية الطويلة تحتاج لإمكانيات كبيرة لتجهيز عدد كبير من الإبل والخبراء المقتدرين وحفر الآبار على الطريق وتوفير الحراسة اللازمة وتهيئة الأمن والحماية السياسية المطلوبة داخل البلاد وخارجها. ولم يكن كل ذلك ميسوراً إلا للسلطان، وقد جعل هذا الوضع الفريد التجارة محتكرة إلى درجة كبيرة للسلطان أو الدولة. وأمدت هذه التجارة المربحة السلطان بالوسائل اللازمة لإملاء إرادته والتأكد من صون ولاء زعماء القبائل والقادة العسكريين له.(٢٩)

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن اهتمام مؤسسة الحكم ممثلة في السلطان ومعاونيه من الإداريين ذوي الانتماءات غير القبلية أمثال "أبوشيخ دالي"، محمّد كُرًّا بالتجارة الخارجية ومحاولة اقتباس النظم الإسلامية لإدارة الدولة، ساعدت على تغير الأساس القبلي الذي قامت عليه الدولة، والتخفيف من غلواء التقاليد الوثنية التي كانت سائدة٠ ويجب ألا يغيب عن بالنا أنه مع غلبة الثقافة الإسلامية وانتشار اللغة العربية بين بعض الوطنيين على أثر استقرار قبائل عربية في دارفور، كما أوضحنا، فإن أسرة الكيرا التي ترجع إلي نسب عربي أو أصل مستعرب ظلت ترتكز على جذور عميقة في قبيلة الفور كما ظلت اللغة الفوراوية لغة للبلاط٠ وهذا لا ينفي أن اللغة العربية مع المكانة السامية التي تتمتع بها كلغة القرآن الكريم كانت لغة الكتابة والدبلوماسية والتجارة .(٣٠)

في عهد السلطان محمد الفضل بن عبد الرحمن (نحو ١٨٠١-١٨٣٩م) الذي اعتلى العرش بمساعدة الوزير محمّد كُرًّا بدأت مظاهر الضعف تدب في كيان الدولة السياسي وكانت أول بادرة ضعف هي قتل السلطان لمحمّد كُرًّا على أثر خلاف بينهما. وفي عهد محمد الفضل دخلت الجيوش التركية المصرية كردفان بقيادة الدفتردار محمد خسرو، وهزمت نائب السلطان محمد الفضل، المقدوم مسلم سنة ١٨٢١م وبذلك ضاعت كردفان وربما كانت الثورات المتعدِّدة التي اجتاحت سودان وادي النيل(٣١) هي التي أنقذت سلطنة الفور من الغزو التركي المصري حتى عام ١٨٧٤م.

هوامش الفصل الرابع:

(1)P.M. Holt, "Dar Fur", *EI2*, 121-122; A.J.Arkell "History of Dar Fur", *S.N.R.*, (1951) XXX, II, 62-70.

(٢) هم الكنجارة والتموركة والكراكيت، أنظر التونسي، , ١٤٤

(3) A.C.Beaton, "The Fur", *S.N.R*, XXIX, 1948, 3; Arkell, "op.cit" *S.N.R.*, XXXII, 52 - 54; Browne, 80-350.

(٤) محمد بن عمر التونسي، **تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب بالسودان،** *Voyage au Ouady*; de Cadalvene et de Breuvery, 1/198-237; Slatin, 39-48; Nachtigal, III/355-446; MacMichael, *Arabs*, 1/191-100; Arkel, "op.cit"., *S.N.R.*, XXXII, (1651) 38-70.

(٥) ربما كانت هناك صلة لغوية بين خيرة هذه وكيرّا اسم العائلة المالكة لسلطنة الفور .

(٦) نعوم شقير، ٤٤١ - ٤٤٢؛ . Slatin , 39 - 42

(٧) ويحتوي كتاب De Cadalvene et de Breuvery,I,

- 199-198علي قائمة ملوك سلطنة دارفور وهي من أفضل ما رأيت من قوائم.

(8) O'Fahey , " Religion and Trade" *Sudan in Africa*, 1, 2.

(٩) نعوم شقير، ٤٤٤ .

(١٠) التونسي، ١٥٨، ١٥٩ - ١٧٨ .

(١١) أنظر استنتاج آركلّ مثلاً في.Arkell, "op,cit", *S.N.R.*, XXXIII,(1952)274-275

(١٢) نعوم شقير ٤٤٥ ؛ التونسي، ٨٤ حاشية ، ٥١ .

(١٣) التونسي، ٧١ - ٧٣؛ نعوم شقير، ٤٤٦؛ .Nachtigal, III, 366 .

(١٤) التونسي، ٧١ - ٢٧٤؛ -Slatin, 32 - 43; Nachtigal, III, 335-336, I, 373; O'Fa hey, *State Formation*, 7.

(15) *Ibid*, 7.

(16) *Ibid*, 7.

(١٧) التونسي، ٧٩ - ,٨٣

(١٨) نسبة إلي مسبَّع جد قبيلة المسبَّعات؛ وربما جاز أن نقول المسبَّعاتى والمسبَّعى ولكن الصيغة السائدة ما أوردناه .

(١٩) أنظر سلطنة المسبّعات فيما يلي.

(٢٠) التونسي، ٨٣ - ٧٨ .

(٢١) التونسي، ٨٧- ,٧٨

(٢٢) نعوم شقير، ٤٥٠- ٤٥٢، لم ترد هذه التفاصيل في كل من التونسي وناختيقال.

(٢٣) التونسي، ٩٩ - ١٠٢، ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢٤) التونسي، ١١٤؛ Barth , I,552-3

(٢٥) التـونسـي، ١١٦- ١١٧ Nachtigal, 365 ; Holt, "Darfur", *EI2*, ?,123.

(٢٦) التونسي، ١١٨ - ١٢١؛ نعوم شقير، ٤٥٣ - ,٤٥٤

(٢٧) التونسي، ٢٨ - ٣٥؛ A.d'Albano , 47-48; Browne,180-215

(28) Browne, 249 - 298 ; O'Fahey, "op.cit" *Sudan in Africa*,92-95.
(29)Browne, 249 - 301.

(30).O'Fahey, *State Formation*, 3,9.

(٣١) تذكر المصادر أن محمد الدفتردار كان ينوي الزحف على دارفور وفي تلك اللحظة بلغته أخبار ما حدث من مقتل الأمير إسماعيل بن محمد علي باشا ونشوب الثورة في شمال السودان فتوجه لإخمادها.

الفصل الخامس

ممالك كردفان

أ . مملكة تقلي :

شهد إقليم كردفان الواقع بين مملكتي الفونج والفور مولد مملكتين صغيرتين هما تقلي والمسبّعات. ففي الجزء الجنوبي الذي تسيطر عليه جبال النوبا نشأت مملكة تقلي في القرن السادس عشر. ونكاد لا نعرف شيئاً عن تاريخ هذه المنطقة، وما وصلنا عنها يمثل في مجموعه تسجيلاً للروايات الشفاهية التي كانت متداولة في أول هذا القرن والقليل جداً من ملاحظات الرحالة والمؤرخين الوطنيين ممن كتبوا عن مملكة الفونج. ولعل في إُطلاق اسم النوبا على سكان هذه الجبال ما يوحي أن ثمَّة صلة ثقافية أو عرقية تربط بين النوبيين من سكان وادي النيل والوطنيين من سكان هذه الجبال.(١) وعلى أثر اندفاع المجموعات العربية الذي أدى إلى سقوط مملكتي المقرة وعلوة واستقرار تلك المجموعات في سهول الجزيرة وكردفان، اتخذت المجموعات الوطنية من جبال النوبا ملاذاً لها. ومن هذه الجبال حافظت هذه المجموعات الوطنية التي اشتهرت باسم النوبا على استقلالها وكثير من مظاهر ثقافاتها، وان لم تنجح بسبب انعزالها في قمم الجبال وسفوحها وتفرق كلمتها في فرض نفوذها على المجموعات العربية التي انتشرت في السهول. وقد مكنت تلك الجبال أولئك النوبا من أن يتفادوا الإمتصاص أو الذوبان في خضم الثقافة الجديدة، كما تسببت تلك العزلة في بقاء كثير من العادات والديانات الإفريقية بين كثير من الوطنيين، رغم توغل بعض المؤثرات الإسلامية حتى يومنا هذا.

أعقب هجرة العرب الذين بلغوا سهول كردفان خلال القرنين الخامس عشر السادس عشر استقرار ثم تزاوج مع السكان الوطنيين عن طريق المصاهرة أو التسرى. ومن القبائل العربية أو المستعربية التي اقترن اسمها بتلك المنطقة أولاد حميد والحوازمة وكنانة والكواهلة والهبانية.

وبانتشار الإسلام والثقافة العربية عليشواطئ النيل وفى سهول كردفان أخذت بعض المجموعات (والأفراد) المسلمة تشق طريقها تدريجيا، وفى عسر شديد، إلى جبال النوبا مبتدئة بالمناطق غير الوعرة كجبل تقلى الواقع فى أقصى الشمال الشرقى.

يطلق جبل تقلى، مهد هذه الدويلة، على جبل مساحته ٤٠ميلا مربعاً ويحتضن من القرى، الهوي، تأسى، كرابا، وجوليويا. وفى مطلع القرن السادس عشر، ربما بعد مولد مملكة الفونج، جاء إلي تقلى أحد "الفقرا"ويدعى محمد الجعلى قادماً من ديار الجعليين فى الشمال. ولم يطُل المقام بهذا الغريب حتى اجتذب قلوب الوطنيين بطيب معشره وحسن أخلاقه وشدة ورعه وتقواه، فأحبوه وأحسنوا وفادته. وكان لسلوك الغريب العاقل هذا وقع حسن على زعيم تقلى كيركير فزوجه من ابنته فى نحو عام ١٥٤٠م. وأنجبت تلك البنت ولداً سماه أبوه أبا جريدة.

وسعى محمد الجعلى إلى نشر الدين الإسلامى بين سكان تقلى ووجدت محاولته قبولا طيباً بين أوساط الناس كما تدعي الروايات الشفاهية. ولما كبر أبوجريدة سار على هدى والده وأخذ يساعده فى بث تعاليم الإسلام بين أهله. وبعد وفاة جده كير كير ورث ابو جريدة زعامة اهله، منتفعاً بنظام الوراثه عن طريق الأم. وقيل إنه عرف من حينها باسم قيلى) Geili ويبدو أن نطقها الصحيح هوجَلِ Jale أبو جريدة إشارة الى مابه من دم غريب. ولعله لقب بالاحمر، وهو معنى كلمة قيلى Geili فى اللغات النوبية .

مع إجماع الرويات أن محمَّداً الجعلى من المجموعات الجعلية أو النوبة المستعربين الذين يسكنون بين دنقلا وملتقى النيلين الأبيض والأزرق، إلا أنها تختلف فى تحديد قبيلته. فتزعم أشجار النسب مثلا انه من الجعليين بينما يتضح بعد نظرة فاحصة لِتلك الانساب أن وجود "رباط"بين أجداد ملوك تقلى يوحى أن محمَّداً من الرياطاب. ومما يرجح قولنا هذا بعض الرويات التى

سجلت حديثاً والتى تؤكد أن محمَّد أحمد الرياطابى، هو جد ملوك تقلى، وأن لقبه هو"دولة دالت".

ولانعرف شيئا عن دولة هذا الا أن اشجار النسب تزعم أن دولة بن السلطان حسن كردم بن أبى الديس، بن إبراهيم جعل، هو والد السقارنج ملوك تقلى. والغريب فى الأمر[٢] أن لفظ السقارنج غير متداول فى روايات التقلاويين أنفسهم. وقد عبرت بعض أشجار النسب عن ظاهرة تبنى النسب العباسى بين كثير من الأسر الحاكمة عندما جعلت الفور والبرنو والسقارنج أبناء لدولة.[٣]

ومهما يكن من أصل محمَّد هذا فإنه يمثل ظاهرة "الغريب الحكيم"والوافد من ديار الجعليين[٤] بالدين الإسلامى والثقافة العربية، والذى اجتذب قلوب الناس إليه بسلوكه الحسن وبمعرفته لبعض المعارف الجديدة كالطهى الجيد. ثم تتم الدورة بتزوجه لبنت الملك ووراثة ابنه العرش.

بتنصيب قيلى أبى جريدة ملكاً على تقلى، فى نحو سنة ١٥٧٠م، وُلِدت مملكة تقلى الإسلامية التى ظلت تسيطر على تلك المنطقة حتى آخر القرن التاسع عشر، واستمر أحفاده يكونون زعامة محلية هامة حتى عهد قريب.

كان لهذه المملكة أثر كبير فى نشر الإسلام والثقافة العربية فى تلك المنطقة، فنشأتها لاشك تمثل مرحلة هامة من مراحل انتقال النفوذ الإسلامى الذى بدأ بقيام إمارة العمرى فى الصحراء الشرقية وزعامة بنى الكنز فى أرض المريس ثم علي يد العبداللاَّب عند ملتقي النيلين و أخذ يمتد تدريجياً نحو الجنوب، حتى آتى أكله بقيام ممالك الفونج والفور وتقلى. وبقيام مملكة تقلى بمنطقة نائية ووعرة، بل لا تقِل وعورة عن منطقة السدود فى جنوب السودان، وفى بيئة جبلية لم يألف العرب الحياة فيها من قبل، استطاع العرب أن يتوغلوا و يتأقلموا ومن ثم صاروا رواداً لنشر الإسلام والثقافة العربية. ويبدو أن ملوك تقلي كانوا يهدفون لنشر الإسلام وثقافته وفق خطة معلومة منها الدعوة للإسلام، والاختلاط والمصاهرة، ثم تشجيع القبائل العربية على الاستقرار فى كنف

مملكتهم. ويرجح أن قيام تلك المملكة قد اجتذب بعض الجماعات العربية للتوغل فى المناطق غير المطروقة من قبل، كما أن ملوك تقلى شجعوا، على عادة ملوك السودان الشرقى، المتصوفة والعلماء على الاستقرار فى بلادهم. ونجد صدى لذلك فى **طبقات ود ضيف الله**. فروى أن تاج الدين البهارى، أول من نشر الطريقة القادرية فى مملكة الفونج فى نحو عام ١٥٧٧م: "وقيل سافر الى تقلى وسلك فيها عبد الله الحمال جد الشيخ حمد ولد الترابى مع جماعة".(٥) ويستدل من هذا النص أن الطريقة القادرية قد شقت طريقها الى جبال النوبا فى وقت مبكر جداً، مما يرجح وجود أساس متين من الثقافة الإسلامية. ويحكى أن الولى الكبير مكى الدقلاش تلميذ الشيخ دفع الله العركى (ت ١٦٨٣م) بعث بإثنين من مريديه إلى سابو،(٦) سلطان تقلى، يطلب منه أن يهديه جاريتين ليتزوج منهما. فمنحه السلطان جارية واحدة، ولكنه ألح على أخرى. فزوجه السلطان من بنته خيرة، فرزق منها بابنه الشيخ إسماعيل صاحب الربابة. ويفهم من وصف ود ضيف الله لطفولة إسماعيل أنه نشأ وترعرع فى جبال النوبا.(٧)

ولا يستبعد أن يكون بعض التجار قد شقوا طريقهم إلى مملكة تقلى، خاصة وأن بعضهم جاء من دنقلا وظلوا يعملون فى استخراج الذهب من جبال شيبون.(٨)

ويبدو أن ملوك تقلى قد اتخذوا من نشر الإسلام دافعاً أو عاملا مساعداً للتوسع فى المناطق المجاورة، إذ لم يلبثوا أن بسطوا سيادتهم على كل المناطق المجاورة التى ربما شملت كل الاقليم الواقع بين تلودى فى الجنوب وخور أبى حبل فى الشمال، وهذا يشمل منطقة الجبال الشمالية الشرقية والسهول المحيطة بها.

ويروى أن أحفاد محمد الجعلى ظلوا على عرش تقلى حتى عهد قريب، ويكفى أن نذكر أسماء الأوائل منهم، وهى قائمة تعتمد أساساً على روايات شفاهية:

١ - قيلى أبو جريدة بن محمد الجعلى .

٢- سابو بن قيلى أبوجريدة .

٣- قيلى عمارة بن سابو .

٤ - عمر بن سابو .

٥ - قيلى عون اللّٰه بن قيلى عمارة .

٦- قيلى أبو قرون بن قيلى عون اللّٰه .

٧- محمد بن قيلى أبو قرون .

٨- عمر أبو زنتر بن قيلى أبو قرون .

٩- إسماعيل بن محمد بن قيلى أبو قرون.

١٠- أبّكر بن إسماعيل .

١١- عمر بن أبكر (١٨١٤ - ١٨٢٧م) .[٩]

ويزعم أن السلطان قيلى أبو قرون (الذى ربما حكم بين ١٦٤٠-١٦٦٥م) تزوج الأميرة عجايب أم شيلة بنت رباط بن بادى سلطان الفونج، وقيل إنها خرجت فى حاشية كبيرة من أتباعها. وإذا صدقت هذه المصاهرة فإنها ترجح أن ملوك تقلى

أحسوا بقوة الفونج المتزايدة ومن ثَّم أرادوا أن يكسبوا ودهم.(١٠) ولكن لم يكن لمثل هذا الزواج أن يحد من مطامع الفونج التوسعية نحو الغرب والتى بدأت بسيطرتهم على جبلى سقدى وموية فى عهد السلطان عبد القادر الأول (ت ١٥٥٧م) ثم استؤنفت فى عهد السلطان بادى أبو دقن (١٦٤٤-١٦٨٠م) الذى بدأ بالسيطرة على النيل الأبيض عند هزيمته للشلك، ثم غزا مملكة تقلى الإسلامية والجبال المجاورة لها بما فيها جبل الداير.

ويذكر فى روايات تقلى أن سبب هذه الحرب يرجع الى الغرور الذى أصاب ملوك تقلى بعد أن اتسعت رقعة مملكتهم، فإن السلطان قيلى أبو قرون فرض ضريبة كبيرة على أحد أصدقاء السلطان بادى أبو دقن وأساء معاملته. بل تحداه ظناً منه أن الصحراء الواقعة بين مملكته و النيل الأبيض تحول بينهما. وتؤكد مخطوطة كاتب الشونة أن ملك تقلى أخذ من صاحب السلطان بادى مالاً، وتحداه. فلما علم السلطان بذلك أجمع على حربه فسار عبر باجة أم لماع، وهى صحراء رملية موحلة، حتى بلغ جبال النوبا وصار يحاصرها ويسبى منها حتى وصل إلى تقلى، وكان ملكها يقاتلهم بالنهار ويبعث لهم بالقرى ليلاً، فسُّر الملك بادى منه وصالحه وجعل عليه خراجاً معلوماً.(١١) ولا نعرف شيئاً عن تفاصيل تلك الإتاوة السنوية ولكن يرجح أنها كانت تدفع من الرقيق الذي كانت منطقة الجبال مصدراً هاماً له، ولعل سلوك السلطان بادي فى هذه الحرب وغزوه لعدد من الجبال بما فيها جبل الداير وأسره لأعدادكبيرة من النوبا ونقلهم لسنَّار وبنائه القرى لهم واتخاذهم جنداً له حقق غرضه بجعله مملكة تقلى تدفع خراجاً سنوياً. ولكن، كعادة ملوك الفونج، ترك الأسرة الحاكمة تتمتع باستقلال داخلى تام. وصار جبل الداير تابعاً للفونج يديره الغديات نياية عنهم.(١٢)

وكانت مملكة تقلى أو جبل أو بلاد التروج، وهو الاسم الذى عرفت به فى كتاب التونسى فى أول القرن التاسع عشر، كثيراً ما تتعرض لغزو منظم من الفور والمسبَّعات بقصد الحصول على الرقيق. فيروى عن هاشم المسبَّعاوى (صار

سلطاناً سنة ١٧٧٠م) أنه أكثر "الغزوات على بلاد التروج والعرب البادية حتى صار ذا مال عظيم، وصار عنده من الرقيق ما يربو علي العشرة آلاف عبد حامل للسلاح".(١٣) كما أن السلطان محمد تيراب عند غزوه لكرُدفان في سنة ١٧٨٦م مر على جبل التروج، "فأوقع بهم وأخذ جميع ما فيهم من الشباب والبنات ولم يترك فيه الا المسنين." (١٤) وليس لدينا ما يؤكد أن جبل التروج يعنى جبل تقلى نفسه بل ربما قصد به واحداً من جبال النوبا التى كانت تحت سيطرة ملوك تقلى. ومهما يكن من أمر هذا التعريف فإن ملوك تقلى لم يكونوا من القوة حتى يصدوا هجمات اعدائهم من "النهّاضة" أو قناصة الرقيق.

وختاماً أود أن أذكر أن تاريخ هذه المملكة يتضح إلى حد ما خلال الحكم التركى المصرى وفى دولة المهدية، وأن ما ذهبنا اليه لا يخلو من بعض الحدس. ومع هذا كله فإن مملكة تقلى كانت بمثابة رأس الرمح لإنتشار الثقافة العربية الإسلامية، وأنه بفضل جهود ملوكها المسلمين صار سكانها الوثنيون وقبائلها المختلفة أمة واحدة تدين بالإسلام وتتمثل بعض مظاهر الثقافة العربية.(١٥)

ب: سلطنة المسبّعات :

لم تحظ كردفان مثل سنّار أو دارفور بإنشاء دولة مستقلة أو تطويرها، بل ظلت منذ أخريات القرن السابع عشر وخلال القرن الثامن عشر تسعى تحت زعامة المسّبعات لتحقيق تلك الغاية. ومع أنها قاربت ذلك الهدف فى عهد السلطان هاشم المسبّعاوى فإن مطامع الفونج والفور التقليدية فى ذلك الإقليم لم تترك للمسبّعات فرصة للفكاك من أسرهما.

وسنحاول أن نستعرض فى هذا الباب المعالم الرئيسية لتاريخ كردفان فى إطار محاولة المسبّعات لخلق دولة مستقلة من جهة ومساعى الفونج والفور للسيطرة على ذلك الاقليم من جهة أخرى. ومما يؤسف له ان معلوماتنا عن تاريخ كردفان قليلة جداً، ونجد هذا القليل ضمن ماكتب عن مملكتى الفونج

والفور وما جمعه ماكمايكل من روايات محلية. وربما كانت الصفحات التى خلفها دى كادلفان ودي بروفري عن تاريخ كردفان نقلا عن كونيق، والتى اعتمد فيها على مخطوطات وطنية أو روايات شفاهية محلية خير ما سُجِّل عن ذلك الاقليم.(١٦)

تشير كردفان أو كردفال(١٧) فى الأصل إلى الاقليم الواقع حول جبل كردفان (جنوب شرق الابيض) والواقع فى شمال جبال النوبا، خاصة منطقة تقلى ويحد شمالاً بجبلي كاجا وأبو حديد، ولايتعدى بأي حال من الأحوال خط عرض ١٤ر٣٠ شمال. وبعبارة أخرى سنركز دراستنا على الجزء الأوسط والجزء الشمالى من مديرية كردفان الحالية منساحا الى الشرق والغرب حتى الحدود التقليدية لكل من مملكتى الفونج والفور على التوالى. فالجزء الجنوبى من مديرية كردفان (الحالية) يسكنه النوبا وبعض العرب كالحمدة والحوازمة والكواهلة، بينما يسكن الجزء الأوسط قبائل مثل الغديات والبديرية والجوامعة والشويحات والتُّمام والجِمع.(١٨) وهى جميعاً وإن كانت تدعى النسب العربى وتتمثل الثقافة العربية تمثلاً كاملاً، فإن الأصول العربية التي ترجع إليها قد ذابت في الشعوب الوطنية التي آوتها وصارت هذه القبائل تمثل مرحلة وسطى بين سكان الجنوب من النوبا أشباه الزنوج، وسكان الشمال من العرب الرحل ممن يعتمدون على تربية الإبل والذين لم يختلطوا بالوطنيين كثيراً، كالكبابيش وبني جرار ودار حامد والمعاليا والمجانين.

يرجح أن المجموعات العربية التى وفدت من الشمال الشرقي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر قد استقرت في السهول بعد أن اضطرت كثيراً من السكان الأصليين للإحتماء بجبال النوبا، وقد استقرت قبائل المنطقة الوسطى حول جبل كردفان وفي الرهد والبركة في بادئ الأمر. ويقال إن الغديات، وهم خليط من العرب والنوبا والفونج استقروا، بادئ ذي بدء في جبل كرباج وملبس، ونجحوا بعد أن طردوا النوبا في بسط نفوذهم على البديرية

والجوامعة. ولما غزا السلطان بادي أبو دقن مملكة تقلى وجبل الداير وكان همه الأول إسترقاق النوبا، ترك المنطقة الواقعة شمالي تقلي تحت إشراف زعيم الغديات، بعد أن عينه مندوباً عنه وخلع عليه لقب مانْجِل وفرض عليه ضريبة سنوية. ومن ثم ظلت كردفان اسمياً تحت سيطرة الفونج.(١٩)

لكن دى كادلفان ودي بروفري يرويان أن كردفان كانت منذ القدم تقع تحت سيطرة الداجو وأن التُنْجُر كانوا آخر حكام وثنيين لكردفان، وأن ذكراهم ظلت عالقة في الأذهان وأن أحمد المعقور العباسي نجح في نحو سنة ١٤٤٦م في بسط نفوذه على كل من دارفور وكردفان. ويذكر المؤلفان في رواية أخرى، وربما كانت أقرب إلى الصواب، أن حكام دارفور فقدوا السيطرة على كردفان منذ أمد بعيد، وأنها صارت جزءاً من دار الإسلام قبل غزو السلطان أحمد المعقور، بل إنها كانت جزءاً من مملكة العبدالَّاب. وتبيِّن الرواية الأخيرة أن كردفان ظلت منذ أواسط القرن الخامس عشر تحت سيطرة العبداللَّاب. وفي رأيي أن هذا القول لا يعني أكثر من أن التجمع القبلي الذي تمت له الغلبة على مملكة علوة بقيادة عبداللَّه جمَّاع، اشتمل علي ممثلين للقبائل العربية التي انتشرت في كردفان. ويبدو أن العرب البدو الذين استقروا في كردفان لم يكتب لهم الفوز على العناصر الوطنية إذ سرعان ما اختلف سكان السهول من العربان مع سكان الجبال وهم النوبا الذين يمثلون أغلبية السكان، فاستغل الفونج هذا الخلاف وغزوا كردفان.

بسبب بعض الخلافات الداخلية لم يلتفت الفور لأمر كردفان، ولكن ما أن مات عمارة دونقس حتى جددوا مطالبتهم وقام السلطان إبراهيم الدليل في جيش يعاونه عرب الغديات والتُّمام وإحتل الأبيض عاصمة الإقليم دون أي معارضة تذكر. لكن نصره لم يدم طويلاً إذ سرعان ما دبَّ الشقاق بين الغديات والتُّمام الذين ساعدوا الفور على غزو بلادهم، في محاولة كل منهما احتلال مكان الصدارة في تلك المنطقة. وانتهز بادي وهو الذي يصفه دي كادلفان ودي

بروفري بسلطان سنَّار، الفرصة وكسب الغديات إلي جانبه بعد أن أقنعهم بعدالة حقوق الفونج في كردفان. وفي سنة ١٥٥٩م تمكن الغديات بمساعدة الفونج من أن يصيروا سادة على كردفان. وخلع بادي على زعيمهم الليسي (أو الليثي)، الذي اتخذ من كازقيل مقراً له، ولقبه بشيخ الجبال وأعطاه سلطات واسعة.(٢٠)

يثير اسم بادى والتاريخ الذي ذكره دي كادلفان ودي بروفري أي ١٥٥٩م بعض اللبس إذ أن السلطان بادي الذي إقترن اسمه بغزو كردفان هو بادي أبو دقن وقد حكم بين ١٦٤٤م-١٦٨٠م وربما كان عهده متأخراً بالنسبة للأحداث التي نحن بصددها. كما أن تاريخ ١٥٥٩م يجعلنا نفكر في ربط امتداد نفوذ الفونج لكردفان بعهد السلطان عبدالقادر الذي حكم بين ١٥٥١م و ١٥٥٨م. ومهما يكن من أمر فإن بعض تواريخ دي كادلفان ودي بروفري تعوزها الدقة وتعطي المرء إحساساً بأنها جاءت متقدمة بنحو قرن.

ومرة أخرى، لم يمكِّن الإنقسام الشديد الذي كان سائداً حول العرش، بين فئتين أو فرعين من الفور وهما الكنجارة والمسبَّعات كما يسميها دي كالفان ودي بروفري، من التدخل المباشر في كردفان. بعد حرب دامية امتدت نحو عشر سنين، انتصر فيها إدريس جعل بن صابون على المسبَّعات (في نحو سنة ١٥٧٨م). ولما فقد المسبَّعات الأمل في السيطرة على عرش الفور خرجوا إلى كردفان وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه. وبدخول المسبَّعات كردفان صار ذلك الإقليم مسرحاً لإصطراع قوى ثلاث هي الفور والفونج والمسبَّعات.

ويجمع الرواة أن المسبَّعات وسلاطين الفور ينحدرون من أصل واحد، إلا أنهم يختلفون في تفاصيل ذلك أو تضطرب آراؤهم في تفسير معنى المسبَّعات. فيروى التونسي أن السلطان سليمان سولونق، أول سلاطين الفور، كان له أخ يدعى المُسبّع، واتفقا على أن يحكم الأول دارفور وأن يحكم الثاني كردفان، وظل الحال هكذا حتى عهد السلطانين هاشم المسبَّعاوي ومحمد تيراب.(٢١) ويروى دي كالفان ودي بروفري أن السلطان إبراهيم دليل بن السلطان أحمد المعقور خلف

ابنين هما بحر زعيم المسبَّعات وصابون رئيس الكنجارة وملكهم.(٢٢) ويتردد اسم إبراهيم الدليل أو (دالي) في الروايات التي ذكرها ماكمايكل وناختيقال.(٢٣) ويقول الأول مثلاً إنه بموت إبراهيم الدليل تعرضت البلاد لحرب أهلية طويلة وذلك من جراء الخلاف الذي نشب بين حفيديه تنسام جد المسبَّعات (وهو الذي تسميه أشجار النسب التمساح) وكورو جد الفور. وتعزو هذه الرواية سبب النزاع بين الفور والمسبَّعات، للمنافسة الشديدة القائمة بين ابني السلطان صابون (وحفيدي دالي) وهما محمد تمساح (تنسام) وأحمد كورو، والتي اضطرت الأول ليهاجر في جماعة من أتباعه من الكنجارة والعرب إلى كردفان، ومن ثم عرفوا بالمصبحات لإتجاههم في هجرتهم نحو "الصبح" أي المشرق.(٢٤) وهذا تفسير شعبي ليس له من الحقيقة سند، وحتى إذا قبلناه فإن قلب الصاد سيناً شيء مألوف في العربية السودانية، إلا أن تغيير الحاء إلى عين ربما كان نادر الحدوث. وعليه كان المُسبّع هذا، أياً كان معنى اسمه، هو البطل الشعبي الذي اقترن اسمه بالثورة على أبناء عمومته من الفور.(٢٥)

ويستنتج من هذه الروايات أن المسبَّعات كانت لهم صلة قربى بالكيرا الذين وضعوا أساس دولة الفور، وفي عهد بناء تلك الدولة وتطورها الذي اقترن بالسلطانين دالي وسليمان سولونق، اضطر بعض الأمراء من أسرة الكيرا ممن كانوا يطمحون في اعتلاء عرش الفور بعد أن فشلوا في الحروب الأهلية التي لمحت الروايات الوطنية لها، أن يهاجروا إلى المنطقة الواقعة شرق جبل مرة - أي كردفان. وهناك التف المسبَّعات حول زعمائهم محاولين بناء قوتهم لتحقيق أهدافهم. وتمثل تلك الهجرة مجموعة من الأمراء وبعض أتباعهم ولكن أعدادهم كبرت بانضمام بعض المؤيدين، ومن قهروهم أو حالفوهم كالبديرية، إلى صفوفهم

ومن حسن حظ المسبَّعات أن الصراع بين الفور والفونج للسيطرة على كردفان لم يكن قوياً أو حاسماً وبالتالي فقد كان هناك مجال لتوسعهم. بل أن الفونج أو حلفاءهم الغديات لم يكن لهم نفوذ كبير غرب الأبيض وكازقيل كما أن الفور

ركزوا جهودهم في العهود الأولى من نشأة مملكتهم في الأقاليم الغربية ولم يكن لهم نفوذ واضح شرق جبل مرة إلا في عهد السلطان عمر بن محمد دورة أو محمد تيراب على وجه التحقيق. ومن ثم فإن تلك المنطقة الممتدة بين كازقيل وجبل مرة كانت خالية من أي كيان سياسي فعال، فملأ المسبَّعات هذا الفراغ وأخذوا يخططون لتنفيذ مآربهم. ويمكن تلخيصها في مأربين على ضوء ما حدث في عهود ثلاثة من زعمائهم، وهم جنقل وعيساوي وهاشم المسبَّعاوي بن عيساوي: **أولاً** أن يستردوا حقهم في عرش الفور؛ **ثانياً** أن يقيموا مملكة لهم على حدود دارفور الشرقية وفي كردفان لتساعدهم في تحقيق الهدف الاول.(٢٦)

ويتبدد الغموض الذي اكتنف تاريخ المسبَّعات قليلاً، عند محاولات الأمير جنقل المسبَّعاوي إقالة السلطان موسى بن سليمان سولونق (١٦٦٠-١٦٨٠م) إلا أنه هزم في معركتين هما تنه وكونق، وكلتاهما تقعان غرب جبل مرة، هزيمة نكراء أدت إلي طرده من دارفور كما نوَّهنا إلي ذلك من قبل.(٢٧) وعلى أثر هذه الهزيمة خرج جنقل بمساعدة عرب البديرية -الذين كانوا يقطنون حول جبل السروج- وقاد جيشاً للأبيض، ولكنه هزم ولاقى حتفه على يد دكين الفونجاوي الذي خلف الليسي على زعامة الغديات.

ويؤكد ود ضيف اللَّه موت جنقل ولكن بصورة تلائم جو **الطبقات** فذكر أن جنقل(٢٨) قدم من الكاب ولعلها "الكابة" الواقعة جنوب الأبيض، في ألف جواد لقتال دكين (الفونجاوي). ولكن الفقيه مختار بن محمد جودة اللَّه، ولعله كان يسكن في دار الريح، نهاه عن قتالهم، بقوله: "لا تقاتل الفونج في ديارهم إن قاتلتهم اللَّه والرسول معهم وأنا معهم". فإغتاظ جنقل وقتل الفقيه وتلاميذه وأهل قريته وسبى أموالهم، "وببركة" الشيخ قُتِلَ جنقل نفسه.(٢٩) وخلف جنقل نحو خمسين ولداً يهمنا منهم إثنان هما خميس وعيساوي اللذان ظلا يكافحان لتحقيق مأرب الأسرة .

أمَّن مقتل جنقل مصالح الفونج في كردفان التى ظلت تابعة لهم لفترة طويلة

دون تدخل خارجي. ولكن في نحو عام ١٧٠٠م غزاها السلطان موسى بن سليمان سولونق، على أثر طرده من عرش آبائه. وبعد خمس سنوات إسترد السلطان موسى عرش الفور مرة ثانية. وما أن بعد السلطان موسى عن كردفان حتى نجح الفونج بمساعدة الغديات في استرداد ما فقدوا من نفوذ. ولا ندري ماذا حدث للمسبَّعات خلال تلك الفترة، ولكن يبدو أن بعض أفراد تلك الأسرة اضطروا -علي إثرْ هزيمة ما- للإلتجاء لسنَّار في عهد السلطان بادي أبو شلوخ (١٧٢٤ - ١٧٦٢م). وممن هربوا الأمير خميس بن جنقل الذي ورد ذكره كشاهد في كثير من وثائق تمليك الأرض عند الفونج. ويعرف بسلطان فور المسبَّعات. واللقب الأخير يدل على أنه ربما نودي به سلطاناً على المسبَّعات قبل هزيمته وهروبه إلى سنَّار.(٣٠) وقد أبلى الأمير خميس بلاءاً حسناً هو وفرسانه في حرب الفونج مع الحبشة والتي انتهت بهزيمة الأحباش وقتل ملكهم إياسو الثاني في معركة عجيب على نهر الدندر سنة ١٧٤٤م.(٣١) ومهما يكن من أمر خميس بن جنقل ومناداته بالسلطان، فإن قلة الأخبار التي تؤرخ للمسبَّعات ربما تفرض علينا أن نقبل ما روي من أن أخاه عيساوي قد نودي به سلطاناً بعد وفاة والده. ولا شك أن إهتمام عيساوي بقضية آبائه ونشاطه الدفاق لتحقيقها يؤهلانه لزعامة المسبَّعات.

وقد سعى السلطان عيساوي للسيطرة على أواسط كردفان، ربما بمساعدة بعض أبناء السلطان أحمد بكر الذين كانوا على خلاف مع السلطان الحاكم. ويبدو أن ذلك الغزو قد أدى إلى إرسال جيش فنجاوي كبير اشترك فيه الوزير محمد ولد تومة وبعض قواده ومحمد أبولكيلك الذي كان "ضابطاً" صغيراً. كما أسهم فيه العبدلاَّب بقيادة المانْجِل الشيخ عبدالله رأس تيره وأخيه الأرباب شمام ولد عجيب. وتعكس أخبار غزوة أواسط كردفان في سنَّار وقرِّى أن الجيش كان مكوناً من الفور والمسبَّعات. فيروي كاتب الشونة أن السلطان بادي أرسل "حرية" لقتال المسبَّعات، بينما توضح رواية العبدلاَّب ذلك أكثر فتقول إن

خروجهم كان بإيعاز من السلطان بادي الذي قال في خطاب للشيخ عجيب : "إن حدود سلطنتي من غرب دخل بها قايد فور بجيشه وعلى ذلك أسرع بالتوجه لدار كردفان وخروج المذكور منها طوعاً أو كرهاً".(٣٢)

إلتقى الجيشان في معركتين في كردفان، الأولي في قِحيف Gihayf بالقرب من التيارة في شمال شرق كردفان، وقد وقعت في سنة ١٧٤٧م - ١٧٤٨م أو ١٧٥١م في رواية أخرى. ويتفق كل من دي كادلفان ودي بروفري ومخطوطة العبداللاَّب في أن جيش الفور والمسبَّعات قد تقهقر في أول الأمر ولكنه سرعان ما استجمع شتات قواه وهزم الفونج.(٣٣) ثم إلتقى الجيشان مرة أخرى في شمقتا في المنطقة الغربية من كردفان حيث دُحر الفونج مرة أخرى. ويبدو أن محمد أبو لكيلك تمكن في تلك الحرب من إنقاذ جيش الفونج من هزيمة نكراء. وقد بالغ كاتب الشونة، أو اختلط عليه الأمر، عندما زعم بأن محمد أبو لكيلك قد انتصر على المسبَّعات في تلك الحرب، ولعله قصد أن يشير إلى الحرب التي خاضها محمد أبو لكيلك في سنة ١٧٥٥م ضد على الكرار الغاداوي (الغدياتي) عندما إتصل سراً بمصطفى المسبَّعاوي .

وما أن غادرت فلول الجيش الفونجاوي كردفان يصحبها إثنان من أبناء زعيم الغديات الثلاثة وهما على الكرار والنور شمة، حتى انفرد عيساوي بالسلطة في ذلك الإقليم واتخذ من أُوريل Ourel مقراً له حيث يعاونه الأمير سليمان بن أحمد بكر. وشجع عيساوي الأمير سليمان للتخلص من السلطان عمر حتى يضمن لنفسه السيطرة التامة على كردفان. ولكن محاولات عيساوي التدخل في شؤون دارفور باءت بالفشل الذريع بهزيمة الأمير سليمان ومقتله في سنة ١٧٥١م.

وراودت أحلام النجاح عيساوي مرة أخرى عندما علم بمقتل السلطان عمر محمد دورة في حربه ضد سلطنة وداي وظن أن الفوضى التي أعقبت مقتله واشتداد الصراع بين أبناء السلطان أحمد بكر هيأت له فرصة جديدة للتدخل.

ولكن فرحته لم تتم إذ أن السلطان الجديد، أبا القاسم أحمد بكر لما علم بتحركاته خرج لملاقاته وهزمه. فاحتمى عيساوي بسلطان دار بيقو الذي أمده ببعض الإبل ليساعده على الهروب إلى كردفان. وفي طريقه، وربما بالقرب من جبال كاجا وكاتول الواقعة في الشمال الغربي من بارا، قتل السلطان عيساوي غدراً بإيعاز من عمه مصطفى الذي كان قد أنابه عنه في حكم كردفان .

لم يتمتع مصطفى بثمار جريمتة النكراء طويلاً. ففي سنة ١٧٥٥م أرسل السلطان بادي أبو شلوخ جيشاً بقيادة محمد أبو لكيلك ليضع حداً لمؤامرات علي الكرار الغاداوي مع مصطفى المسبَّعاوي ضد مصالح الفونج في كردفان وليتحرر من نفوذ المسبَّعات. وكانت قسوة مصطفى وسوء معاملته لسكان كردفان سبباً في ترحيبهم بالجيش الفونجاوي الذي دخل الأبيض دون معارضة تذكر. ولما تخلى أعوانه عنه هرب مصطفى إلى سودري.

وجاء في رواية لمحمد عبدالرحيم أن الشيخ أشقم ممدوك، وهو من حمر العساكرة سكان شنقا، تولى رئاسة المسبَّعات،[٣٤] وبعث سراً إلى هاشم وهو واحد من أبناء السلطان العديدين والذي كان يتلقى العلم سراً في دارفور لكي يعود. فلما وصل هاشم نودي به سلطاناً.[٣٥]

ومنذ البداية ترسم هاشم سياسة آبائه التقليدية وهي محاولة انشاء مملكة المسبَّعات في كردفان اولاً و السيطرة على دارفور ثانياً٠ وابتدأ بتأمين نفسه في منطقة إستراتجية آمنة هي منطقة "جبل بشارة طيب" المعروف بكاب بلول، وبلول هو زعيم البديرية الذي غدر به السلطان هاشم هو وأهله وطردهم عن ذلك الموقع، ثم ضم إليه منطقة سودري وجبال كاجا وكاتو، وحفر الآبار.[٣٦] ومن ذلك الموقع المانع اتجه نحو الأبيض ليتخلص من نفوذ الغديات وسادتهم الفونج. وتقول بعض الروايات إن الغديات أخذوا يتحرشون بقيادة زعيمهم عبد اللّٰه جدي بلولة بالمسبَّعات، ولكنهم هُزموا في موقعة كب. ثم سار هاشم المسبَّعاوي في جيش كبير مكوَّن من قبائل كاجا وكاتول والشويحات والجوامعة (وربما المسيرية

والحوازمة) وهزم الغديات وقتل زعيمهم عبد اللّه جدي بلولة في منطقة ملبس الواقعة جنوب الأبيض.[٣٧]

ويبدو أن الفونج لم يحركوا ساكناً في ذلك، ولكن خروج الشيخ رجب بن محمد في سنة ١٧٨٠م لكردفان قد يفسر بأنه محاولة جادة للتخلص من المسبّعات. ولكن السلطان هاشم تجنب مقابلة الشيخ رجب وتقهقر إلى أبي صلعة في المنطقة الشمالية الغربية من كردفان. وإستاء المسبّعات من سلوك زعيمهم المشين، وقرر أخوه عبد اللّه دسكو، إظهاراً لشجاعته وجدارته لقيادة المسبّعات، أن يقابل الشيخ رجب الذي كان يتعقبهم، فلما هزم لحق بأخيه هاشم في جبل كاجا. وظل رجب يسيطر على الجزء الشرقي من كردفان حتى سنة ١٧٨٦م عندما قرر العودة لسنّار لمواجهة بعض الأحداث السياسية الهامة فيها.[٣٨] ومن ثم لم يعد في مقدور الفونج أن يتدخلوا تدخلاً سافراً في مجريات الأحوال في كردفان. وخرج هاشم المسبّعاوي من عزلته في منطقة كاجا وكاتول وإحتل الأبيض مرة ثانية .

وفي هذه الفترة التي إمتدت نحو الخمسة عشر عاماً (١٧٧٢- ١٧٨٦م) قارب هاشم المسبّعاوي النجاح، إذ استطاع أن ينشئ لنفسه قاعدة حصينة يمكنه التقهقر إليها بعد حملاته المتكررة ضد النفوذ الفونجاوي في الأبيض. كما أخذ في تكوين جيش يغزو به بلاد التروج أو جبال النوبا، للحصول على الرقيق منها، كما كان يغير على عرب البادية ربما بقصد السبي منها، حتى صار ذا مال كثير. ويقول التونسي: "وصار عنده من العبيد ما ينوف عن عشرة آلاف غير حاملي السلاح. واجتمعت عليه أوباش الناس من الدناقلة والشايقية والكبابيش وعرب الرزيقات حتى صار في جند كثيف". وإزاء هذه القوة طمعت نفسه في دارفور وأخذ يتحرش بحدودها الشرقية.[٣٩]

ويبدو لي أن السلطان هاشم قد بالغ في تقدير إمكاناته المادية والبشرية وتجاهل أن سبب نجاحه وقتي ويعتمد إلى درجة كبيرة على إنشغال الفونج

بمسائل داخلية من جهة، وإيثار السلطان محمد تيراب للسلم من جهة أخرى. وكتب السلطان محمد تيراب إلى السلطان هاشم المسبَّعاوي يرجوه أن يكف عن إرسال سراياه وأخذ أموال المسلمين وخاطبه "بابن عمي" ولكن هاشم لم يرعو.(٤٠) وقرر السلطان مجمد تيراب أن يستأصل شأفته، خاصة بعد أن تعددت دوافعه منها التخلص من إخوته ابناء السلطان أحمد بكر الذين كانوا ينافسون ابنه اسحق الخليفة في ولاية العهد، وكان يرغب في تأمين حدوده الشرقية وأن يقضي على أي نظام يحاول أن يخرج من نطاق الوضع القبلي التقليدي، وهو ما سعى المسبَّعات لتحقيقه في منطقة كاجا وكاتول. بل ربما آثر التوسع في تلك المنطقة لأسباب اقتصادية بحتة تضمن له السيطرة علي مصدر تجارة الرقيق في بلاد التروج وما جاورها .

وما أن اطمأن السلطان محمَّد تيراب بانشغال الفونج بمسائل داخلية حتى قرر الخروج بنفسه. ولما علم السلطان هاشم المسبَّعاوي بقدوم ذلك الجيش الجرار، أحس بفداحة خطئه وعدم قدرته على الصمود أمام جحافل الفور وعساكرهم المدرعين وتبين له ضعف تحصيناته في كاجا وكاتول فآثر الأنسحاب. وقيل إنه قد مني بهزيمة على يد الإداري الكفء أبو شيخ محمَّد كُرَّا، الذي كان يقود جيشاً صغيراً قوامه نحو مائتي فارس مدججين بدروع وخوذات من الحديد بالقرب من مقره في كاجا وكاتول. وبعد مشقة كبيرة تمكن هاشم من الإنسحاب هو وعائلته في نفر من أتباعه إلى دنقلا .

كان الغزو الفوراوي أكثر من مجرد غارة عابرة أو حملة تأديبية، فقد سعى السلطان تيراب وأعوانه أن يوطدوا حكم الفور في كردفان لفترة بلغت الخمسة والثلاثين عاماً. وقد أوكل إرساء حكم الفور إلى أبي الشيخ محمّد كُرَّا ومالك إبراهيم ود رماد وتمت لهما السيطرة على الأبيض.(٤١)

ومن مملكة الفونج أخذ السلطان هاشم يعد الخطط ويحيك المؤامرات بغية إسترداد ما كاد أن يصبح نواة لمملكة المسبَّعات. وحتى يحقق مأربه اتصل بالملك

صبير ملك الشايقية، الذي أحسن وفادته وزوجه من بنته. ولكن إقامته لم تطل في "حَنَك" إذ لجأ إلى ملك السعداب بشندي محاولاً أن يوسع من دائرة أصدقائه وأعوانه حتى بلغ بلاط الفونج في سنَّار. وفي نحو عام ١٧٩٦م رجع إلى كردفان مرة أخرى فأمر السلطان عبد الرحمن الرشيد حاكم بارا، المقدوم مسلم، ليتعقبه ويقبض عليه حتى ولو أدى ذلك إلى اللحاق به في مصر. ولكن هروب السلطان هاشم إلى مملكة الفونج جعل المقدوم مسلم، يحجم عن تعقبه حفاظاً على الود السائد بين الدولتين. ويكفي أن نقول إن السلطان هاشم ظل يتنقل من مكان لآخر آملاً في تحقيق بعض أمانيه، حتى لاقى حتفه في زمن لا يمكن تحديده.(٤٢) ولكن من الراجح أنه مات في العقد الأول من القرن التاسع عشر. ويقال إن معظم أتباعه من المسبَّعات ساروا إلى سنَّار حيث نصحهم ملكها بالإستقرار على الحدود الحبشية فاختاروا منطقة القلابات.(٤٣)

بعد قرن من المحاولات المضنية، التي استنفدت جهود ودهاء ثلاثة من أشجع الرجال وأقدرهم، وأضاعت أمل ثلاثة من أجيال المسبَّعات التي آمنت بشرعية حقها في عرش الفور، وبصدق رسالتها لإرساء قواعد مملكة في أواسط كردفان، انهار النفوذ السياسي الذي حققه جنقل وعيساوي وهاشم المسبَّعاوي لذويهم. ويبدو أن طموح المسبَّعات كان يفتقد أي دعم قبلي أو سند محلي يرتكز على حكم موروث أو تجارة واسعة، بل اعتمدوا على براعتهم القيادية ومقدرتهم السياسية. وقد قارب السلطان هاشم المسبّعاوي النجاح عندما إتخذ من منطقة كاجا وكاتول قاعدة له. ولكن تلك القاعدة الحصينة كانت تفتقد التأييد الجماهيري العريض، كما كان ينقصها ولاء زعماء القبائل وجيش نظامي. فقد كان من الضروري وجود جيش مدرَّب وذي فعالية ليصد مطامع الفونج والفور في كردفان. وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن من أهم العوامل التي ساعدت الفونج والفور والبرنو في السيطرة على مساحة واسعة وعلى قبائل مختلفة اعتمادهم على جيش من المدرعين. وقد تمكن حاكم بارا المقدوم مسلم من السيطرة على

كردفان بقوة من المدرعين لا تزيد عن المائتين أو الثلاثمائة فارس، ومن ثمَّ لم يجرؤ شيوخ القبائل في كردفان على التصدي لمثل تلك القوة الفعالة. وربما لا نعدو الصواب إذا قلنا إن فشل المسبَّعات في إنشاء مملكة لهم في كردفان يرجع اساساً لعدم امتلاكهم لمثل تلك القوة الرادعة.(٤٤)

وأظن أننا لا نعدو الصواب أيضاً إذا قلنا إن سلطنة المسبَّعات كانت مجرد فكرة أو أمل في رؤوس من آمنوا بها، وقد وئد هذا الأمل قبل أن يحقق تقليد حكم أو هيكل إداري أو نظام سياسي أو بلاط ملكي أياً كان شكله ومضمونه.

هوامش الفصل الخامس :

(١) للتفريق بين المجموعتين نستعمل اصطلاح "النوبة" للدلالة علي المجموعة النيلية المعروفة، و"النوبا" للدلالة علي ساكني الجبال في كردفان. ومازالت الصلة بين النوبة والنوبا موضع خلاف بين الباحثين. ومن شاء التوسع في هذا الموضوع فاليرجع إلي-R.C Stevenson, *The Nuba People Of Southern Kordofan*: An Ethnographic Survey, 7,47,52.

(2)R.J . Elles , "The Kingdom of Tega!i", *S.N.R.* XVIII,1963,9-30.

(٣) عبد القادر محمد عبد القادر، "تاريخ قبيلة تكلى"، **المجلس**، العدد ١٢٢، ١٩٦٢،٧-٣ . ولإختلاف بعض تفاصيل هذه الرواية عن رواية إليس رأيت أن اذكرها هنا: تقول إن محمد احمد الرياطابى الملقب بدولة دالت خرج فى جماعة من ذويه على اثر خلاف بينه وبين عشيرته فى أبى حمد. وساروا حتى بلقوا تقلى ولم يظفروا برضى حاكمها كرينى الابعد جهد شديد. فقد تشكك زعيم تقلى، لجهل كل بلغة الآخر، فى نواياهم. (وكان محمد احمد يقوم بأساليب كثيرة من شانها أن تؤلف قلوبهم مثال توزيع الطعام. والذى كان يختلف كثيرا عن طعامهم لأنه كان جيد الطهى، ومضافا اليه الملح الذى كان معدوماً عندهم الخ...) فأحبه الملك وزوجه ووهباه بنتهما، ومن ثم صار له وضع خاص فى القبيلة إذ صار يشترك فى تدبير شؤن الدولة الهامة. ولما مات الملك، وقع الاختيار عليه بطريقة طريفة. فكان من عادتهم أن يطلقوا طائرًا فى السماء ومن يهبط عليه يختار ملكاً ولما هبط هذا الطائر ثلاثة مرات على محمد احمد اختير ملكاً، مع انه غريب عن ديارهم، ثم ورث ابناءه الملك من بعده .

(4)MacMichael, *Arabs* I,211,?/29 .

(٤) من المجموعات المستعربة التى تدعى النسب الجعلى فى تلك المنطقة الغديات

والكرتان والضباب والسقارنج ملوك تقلى .

(٥) **طبقات ود ضيف الله**، ١٢٨ .

(٦) ذكر، Elles , "op .cit" ..*S.N.R.*,. XVIII, 30 أنه سابو بن قيلى أبو جريدة ، ويقول إنه حكم بين (١٥٧٥م - ١٥٩٨م) وهوتاريخ متقدم فيما يبدو .

(٧) **طبقات ود ضيف الله** ، ٩٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤

(8) Stevenson, "Some Aspects of the Spread of Islam in the Nuba Mountains" *S.N.R.*; XLIV, 1963 , 10.

(9) Elles " op. cit", *S.N.R.*;XVIII, 12,30.

(10)Elles "op .cit ", *S.N.R* , XVIII,12,30

(11) *Ibid*, 10.

(١٢) **مخطوط كاتب الشونة** ، ١٠٠٩ .

(13)MacMichael, *Arabs*, I, 205.

(١٤) التونسى ، ٨٤ .

(١٥) التونسى ، ١٠٣ ؛ نعوم شقير ، ٤٤٩ - ٤٥١ .

(16)Stevenson, "op. cit " *S.N.R.*, XLIV, 13.

(17)De Cadalvene et de Breuvery, I, 197-214.

(١٨) لعل هو أصل الكلمة ، وتشير الى جبل فى تلك المنطقة ، أنظر طبقات ود ضيف اللّه ، هامش ١٤ صفحة ٨٢ .

(19) MacMichael , *Kordofan* , 222-4.

(20) *Ibid*, 65 - 6; MacMichael,*Arabs* , I,203-204

(21) De Cadalvene et de Breuvery, 1,197-199,200-1; MacMichael; *Arabs*, 1,202.

(٢٢) التونسي، ٨٣ – ٨٤ ؛ نعوم شقير ، ٤٤٨ – ٤٤٩ .

(23)De Cadalvene et de Breuvery , I,199 .

(24)Nachtigl, 111,3624.

(25)MacMichel, *Kordofan*, 60-2.

(26)*Ibid*, 61.

(٢٧)إطلعت قبل بضعة اشهر على مسودة مقال عن هاشم المسبَّعاوي للسادة :-
Jay Spaulding . R.S O'Fahey وقد استفدت من بعض ما ما
ورد فيها من آراء فلهما شكري وقد نشرت فيما بعد بعنوان
Hashim and the Musabba'at. *B.S.O.A.S*, XXXV, 2, (1972) 316 - 33.

(28)MacMichael, *Kordofan*, 62; Nachtigal,I,366.

(٢٩) يسميه ود ضيف اللّه جنقل سلطان الفور خطأً ولعله قصد سلطان فور المسبَّعات وهو الاستعمال الذي يرد في وثائق تمليك الأرض عند الفونج عند وصفهم للأمير خميس: السلطتان خميس سلطان فور المسبعات. أنظر أبو سليم: ٦٠، ٦٣، ٦٦ مثلاً. وتشير إليهم مخطوطة كاتب الشونة ص ٢٠ فور ناس الشيخ خميس ولد جنقل .

(٣٠) **الطبقات** ، ٣٤٥ - ٣٤٦,

(٣١) أبو سليم ، ٤٤ - ٤٥ وربما كان وصوله إلى سنار قبل عام ١٧٢٨م ، نقلا عن مخطوطة "أبطال السودان" لمحمد عبد الرحيم. ومما يؤسف له أن الأستاذ محمد عبدالرحيم لم يذكر مصادره، ولكن استقراره في دارفور ردحاً من الزمن يرجح أنه اعتمد على روايات شفاهية ومصادر خطية غير متوفرة لنا الآن .

(٣٢) **مخطوطة كاتب الشونة**، ٢١ - ٢٢,

(٣٣) **مخطوطة كاتب الشونة**، ٢٤ .

(٣٤) ملوك العبدلاب، ١٤؛. Nachtigal,III,370-71

(35)De Cadalvene et de Breuvery , I, 204-207.

(٣٦) محمد عبدالرحيم، ٨١٢ .

(37)MacMichael , *Kordofan* , 74 - 5.

(٣٨) محمد عبدالرحيم، ٨١٣ - ٨١٤ .

(٣٩) تقول **مخطوطة كاتب الشونة** ، ٣١ ، إن الشيخ رجب توجه إلى كردفان كعادة من كان قبله من آبائه وانتقل لمحاصرة الجبال لإقتناص الرقيق .

(40)De Cadalvene et de Breuvery , 1,209 - 10 .

(٤١) التونسي، ٨٤ - ٨٦,

(42)De Cadalvene et de Breuvery, 1,211.

(٤٣) يقول دي كادلفان ودي بروفري إنه قتل في عام ١٨٠١م في حربه مع المقدوم مسلم ويقول محمد عبد الرحيم إنه مات في المتمة نحو سنة ١٨٢٢م. ولعل الصواب انه مات في سنة ١٨١٢ ؛ *Ibid*, I,211-13

(٤٤) محمد عبدالرحيم، ٨١٤, ما زال المسبَّعات يقيمون في عمودية جقوشرق الفاشر. أنظر: آدم الزين، ٣ .

(45)O'Fahey , *State Formation* , 8 .

الفصل السادس

إنتشار الإسلام
في
السودان الشرقي

انتشار الإسلام في السودان الشرقي

تعرضت في أثناء حديثي عن قيام الممالك الإسلامية في السودان الشرقي في اقتضاب شديد لبعض مظاهر انتشار الإسلام. ولما كان هذا الحدث مثل دخول العرب الى السودان، واحداً من العناصر المهمة التي أسهمت في قيام تلك الممالك، بل ظل الإسلام يمثل واحداً من الروافد الثقافية التي أثرت في معتقدات شعوب السودان الشرقي ووجدانهم، رأيت أن اذكر في شيء من التفصيل الطريقة التي انتشر بها الإسلام وأتعرض لبعض سماته في بيئته الجديدة.

ونسبة لشح المؤلفات التي تؤرخ لإنتشار الثقافة الإسلامية في سائر أنحاء السودان الشرقي فستتركز معظم ملاحظاتي على المنطقة الواقعة تحت نفوذ العبداللاّب السياسي. ففي تلك المنطقة عاش الفقيه محمد النور بن ضيف اللّه (ت ١٨١٠م) مؤلف كتاب **الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان**، وهو سفر قيم يعكس أبعاد انتشار الإسلام وطبيعته. وقد ركزالمؤلف جهده على تراجم الأولياء والفقهاء والقراء وقلة من الخطباء والقضاة، وكان جملة من ترجم لهم نحو المئتين والسبعين شخصاً. وتوضح هذه التراجم أن المؤلف ركز جهده على الجزء الشمالي من الجزيرة، خاصة شواطيء النيل الأزرق، والمنطقة الواقعة بين دنقلا وملتقى النيلين.وتعكس كثرة أسماء من ترجم لهم من هذه المنطقة غلبة الثقافة العربية والإسلامية إذا ما قورنت بباقي اجزاء السودان الشرقي. وإذا ما استثنينا سنَّار. نجد أن المؤلف نادراً ما يشير الى علماء من بلاد البجة، والتاكا وكردفان ودارفور. ويرجع صمته هذا لقلة ما يعرفه عن تلك البلاد، ولبعدها عن موطنه، حلفاية الملوك، وربما لعدم إنتشار الثقافة الإسلامية وتعمقها فيها بعد. وتحتويكل ترجمة على نبذة من حياة المترجم له، ونسبه لأبيه، وأمه، وأسماء معلميه، وشيوخه الذين سلك عليهم المذهب الصوفي ثم اسماء التلاميذ والمريدين الذين أخذوا عنه، وأسماء الكتب التي إطّلع عليها أو دبجها؛

ويختم ذلك بما ينسب للمترجم له من كرامات(١).

تسربت بواكير العقيدة الإسلامية إلى الجزء الشمالي من السودان الشرقي منذ أواسط القرن السابع الميلادي على ايدي التجار المسلمين والمهاجرين العرب. وقد تسربت هذه المجموعات كالهجرات العربية الكبرى من ثلاثة طرق: **أولها**: من مصر **وثانيها**: من الحجاز عن طريق موانئ باضع، وعيذاب، وسواكن، **وثالثها**: من المغرب وشمال أفريقيا عبر أواسط بلاد السودان. وقد أسهم التجار المسلمون في نشر الدين الإسلامي اثناء رحلاتهم في مملكتي النوبة وعلوة وبلاد البجة، وساعدهم في ذلك المغامرون الذين اشتغلوا بالتعدين في الصحراء الشرقية. إلاّ أن صغر حجم هذه الفئة قلل من فعالية أثرها، إذا ما قورن بدور المجموعات العربية التي أخذت تتوغل في السودان في أعداد كبيرة منذ القرن التاسع الميلادي. ونتيجة لتزايد النفوذ العربي الإسلامي صارت الأسر المالكة في بلاد النوبة وعلوة وسنار وتقلي ودارفور مسلمة مستعربة بعد أن كانت مسيحية أو وثنية. وبنهاية القرن السابع عشر بلغ النفوذ الإسلامي نحو خط عرض ١٠° شمالاً، والذي ظل يمثل الحدود الجنوبية لإنتشار الثقافة الإسلامية في معظم تلك الممالك عدا منطقة البقارة التي أمتدت حتى شواطئ بحر العرب الشمالية .

غير أن إنتشار الدعوة الإسلامية قبل قيام مملكة الفونج كان صورياً، فقد إهتم الرواد الأوائل من المسلمين، وجلهم من التجار والبدو وهم ممن تنقصهم المعرفة الدقيقة بالفقه الإسلامي، في إستمالة المسيحيين والوثنيين إلي الإسلام فركزوا على المبادئ العامة دون التفاصيل، وقد شارك هاتين الفئتين بعض العلماء ولكن جهودهم ظلت محدودة. وقد روى عن أول من أشتهر منهم واسمه غلام اللّه بن عائد اليمني، والذي قدم من الحليلة باليمن في أواسط القرن الرابع عشر، أنه قرر البقاء في دنقلا مساهمة منه في نشر تعاليم الإسلام الحقة، إذ هاله ما رأى بأهلها من جهل وحيرة لإنعدام العلماء والقراء. فلما حل

بها عمر المساجد وأنشأ المدارس وأخذ يعلم القرآن لأولاده ولأبناء المسلمين. وشهد القرن الخامس عشر مجئ الشيخ حمد أبو دنانة صهر الشيخ عبد اللّٰه بن محمد الجزولي الشاذلي، وكان استقراره بالمحمية ولعله أول من نشر الطريقة الشاذلية في السودان[٢].

وبالرغم من مجهودات غلام اللّٰه بن عائد وحمد أبي دنانة فإن حالة التيه والجهل التي اشرنا إليها أولاً ظلت موجودة حتى نهاية مملكة علوة المسيحية. وجاء في وصف ليوحنا السورى الذي زار تلك البلاد أن سكانها: "ليسوا بمسيحيين ولا يهود ولا مسلمين ولكنهم يؤملون أن يظلوا مسيحيين".[٣] وحقيقة الأمر أن الديانة المسيحية لم تندثر بإنتهاء نفوذ مملكتي النوبة وعلوة المسيحيتين، بل استمرت المسيحية في بعض مظاهرها حتى عهد متأخر. وقد أثبتت الحفريات الحديثة أن الديانة المسيحية ظلت موجودة في بعض المناطق في أقصى شمال السودان الشرقي حتى أواخر القرن الخامس عشر (أو ١٤٨٥م).[٤] ولعل ما جاء على لسان الراهب الحبشي تكلا ألفا الذي زار دنقلا في سنة ١٥٩٦م ما يوحي بوجود فرق عقائدي بين من يسميهم بالنوبة وبين سائر المسلمين[٥].

ولما استولى الفونج على زمام الأمر في أول القرن السادس عشر وصف ابن ضيف اللّٰه الحال بأنه: "لم يشتهر في تلك البلاد علم ولا قرآن. ويقال إن الرجل كان يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نهارها من غير عدة حتى قدم الشيخ محمود العركي من مصر، وعلم الناس العدة، وسكن البحر الأبيض".[٦]

ومحمود العركي عربي من بني عرك فرع من جهينة، وقد نشأ بالنيل الأبيض، ثم هاجر لمصر حيث درس الفقه المالكي على إثنين من أئمة ذلك المذهب هما ناصر الدين اللقاني (١٤٥٣ - ١٥٢٨ - ١٥٢٩م) وأخيه شمس الدين (١٤٦٨ - ١٥٥١م)، ثم عاد لبلاده حيث أنشأ سبع عشرة مدرسة بين الخرطوم وإليس لتدريس الفقه.[٧] فلما وطّد الفونج أركان ملكهم بمشاركة العبدلاّب، خلق ذلك نوعاً من الإستقرار والوحدة السياسية الأمر الذي ساعد على بث الثقافة الإسلامية

بطريق أعمق وأشمل مما ألفته البلاد من قبل. فهاجر بعض السودانيين يطلبون العلم في مصر والحجاز والمغرب بينما تقاطر بعض الفقهاء صوب السودان الشرقي من مصر والحجاز، على أثر تشجيع ملوكه لهم بالهدايا والهبات. وكان جل من وفد من مصر من الفقهاء، بينما تميز الأثر الحجازي بغلبة رجال الطرق الصوفية عليه، ويساعد التيار المغربي في إثراء كل من الطابع العلمي والصوفي.(٨)

ومن أول العلماء الذين أسهموا في بث تعاليم الدين الإسلامي الشيخ إبراهيم البولاد بن جابر بن غلام اللّٰه بن عائد، الذي جاء ذكره من قبل. ولد إبراهيم بجزيرة ترنج ببلاد الشايقية، ثم رحل إلى مصر حيث تفقه على الشيخ محمد البنوفري (ت ١٥٩٠م) إمام المذهب المالكي في القاهرة. فلما فرغ من دراسته عاد لوطنه وأدخل تدريس كتابي رسالة ابي زيد القيرواني ومختصر خليل بن إسحاق في مملكة الفونج، وتدفق الطلبة عليه وعلى إخوته إسماعيل وعبدالرحمن وعبد الرحيم من بعده.

قام أولاد جابر الأربعة وأحفادهم بدور كبير في إرساء قواعد التعليم الديني والفقه في أجزاء متفرقة من السودان الشرقي،(٩) كما بلغت أختهم فاطمة درجة رفيعة في العلم والصلاح، ومنها إنبثقت اسرة دينية أخرى لا تقل عن أولاد جابر شهرة، وهم الصغيروناب أحفاد إبنها محمد صغيرون بن سرحان الذي تفقه على أخواله ثم درس علي البنوفري. وبسبب بعض الخلاف بينه وبين أبناء أخواله وعلى أثر دعوة من السلطان بادي سيد القوم، وكان من مريديه ويؤمن بصلاحه نزح حوالي عام ١٦١٢م إلي ديار الجعليين حيث أسس في الفجيجة، الواقعة جنوب شندي، مركزاً دينياً شبيهاً بمركز أخواله.(١٠) وتحت قيادة ابنه وخليفته الشيخ الزين إزدهرت تلك المدرسة حتى طبقت شهرتها الآفاق. ويقول عنه ود ضيف اللّٰه : "وجلس في حلقة أبيه من بعده، وشدت إليه الرحال، وضربت إليه أباط الإبل، وطال عمره، واشتهر ذكره. وأخذت عليه الأبناء والآباء والأحفاد

والأجداد وبلغ تدريسه لمختصر خليل خمسين ختمة، وبلغت حلقته ألف طالب وتلامذته صاروا شيوخ الإسلام. وبالجملة فالبلاد كلها إلى دار صليح تجد فقهاها وقضاتها تلامذته وتلامذة تلامذته".(١١)

نشأ آخرون من حفدة أولاد جابر مدارس في أبي حراز والهلالية وقام أبناء عمومتهم، الركابية أبناء ركاب بن غلام اللّه بن عائد، بدور مماثل في نشر العقيدة الإسلامية فاشتهروا بمدارسهم في خورسي بكردفان وجبل الحرازة، وفي الصبابي الواقعة شمال الخرطوم، والتي ربما هاجروا إليها قبل قيام مملكة الفونج.

شهدت نفس الفترة هجرة المحس، وهم قبيلة من النوبة الذين يسكنون بين الشلال الثاني والثالث إلى شواطئ النيل الأزرق بالقرب من ملتقى النيلين. وقد أدى ذلك لنشأة بعض المراكز الدينية التي حظيت بشهرة واسعة خاصة مدرسة الشيخ إدريس ود الأرباب (١٥٠٧-١٦٥١م) في العيلفون ومدرسة الشيخ أرباب الخشن أو أرباب العقائد (سنة ١٦٩١م) في الخرطوم وممن تتلمذوا عليه الشيخ خوجلي، وفرح ود تكتوك، وحمد ود أم مريوم، ومحمد ود ضيف اللّه جد مؤلف الطبقات. ومدرسة الشيخ خوجلي بن عبدالرحمن (ت ١٦٤٣م) الذي استقر شرق جزيرة توتي.(١٢)

أدى تقاطر الطلبة السودانيين علي مصر إلي تشجيع العلماء المصريين على الهجرة إلى السودان رغبة في ثواب الآخرة وطمعاً في جاه الدنيا. ومن أشهر هؤلاء الشيخ المصري محمد القناوي الذي درس الفقه المالكي على الشيخ سالم السنهوري (ت ١٦٠٦م) والشيخ يوسف بن عبدالباقي الزرقاني. وكان مجيئه إلى مملكة الفونج في أواسط القرن السادس عشر حيث زار سنَّار وأربجي واستقر أخيراً في بربر عاصمة مشيخة الميرفاب. وتخرج عليه عدد من أجلة العلماء أمثال الشيخ عيسى بن صالح سوار الدهب وعبداللّه الأغبش وعيسى بن كنو ، ومنهم حفيده المضوي محمد بن محمد بن الشيخ المصري ، العالم الجليل الذي

صنف عدداً من الكتب والحواشي في الفقه والتوحيد.(١٣)

وقد اهتم أولئك الفقهاء بالتركيز على تعليم القرآن الكريم وتدريس مبادئ التوحيد والفقه في إطار المذهب المالكي، وإن كانت قلة من السودانيين قد تبعت المذهب الشافعي. وترجع غلبة المذهب المالكي إلى أن جمهرة من هاجر من العرب إلى السودان وفدوا من صعيد مصر الذي عرف بشيوع المذهب المالكي بين سكانه. وكان الرواد الأوائل من الفقهاء سواء من درسوا في مصر كمحمود العركي وإبراهيم البولاد ومحمد صغيرون سرحان أو من وفدوا منها مثل محمد القناوي المصري، كانوا ممن تفقهوا في المذهب المالكي ونشروا كتبه الرسالة **ومختصر خليل**.(١٤) وكان معظم علماء المغرب الذين تقاطروا على السودان الشرقي يدينون بالمذهب المالكي. وربما كان تفضيل السودانيين للمذهب المالكي يعزى إلى أن طبيعة ذلك المذهب تناسب حياة البداوة الغالبة على السودان الشرقي.(١٥)

دخل المذهب الشافعي مملكة الفونج على يد الشيخ محمد بن علي قرم الذي درس على الفقيه المشهور الخطيب الشربيني (ت ١٥٦٩ - ١٥٧٠م) وجاء إلى السودان في نحو عام ١٥٦٣م، وبعد طواف استقر به المقام في بربر حيث نشر تعاليم الإمام الشافعي. وكان من تلاميذه عبدالله العركي، وإبراهيم الفرضي، والقاضي دشين المشهور "بقاضي العدالة". ولم يكتب للمذهب الشافعي الإزدهار نتيجة تكاثر أتباع المذهب المالكي ، غير أن منطقتي سواكن وطوكر ظلتا تدينان بتعاليم الشافعي نتيجة صلاتهما التجارية بالحجاز واليمن ومصوع وشرق أفريقيا حيث تغلب تعاليم ذلك المذهب.(١٦)

كانت أكثر كتب الفقه المالكي شيوعاً في مملكة الفونج الرسالة و **مختصر خليل**، وشروحه المتعددة مثل **شرح عبدالباقي الزرقاني على مختصر خليل وفتح الجليل على مختصر خليل** لمحمد بن إبراهيم التتائي، و **حاشية علي مختصر خليل** لأبي عبدالله الخراشي، وكذلك **المدونة** لأسد بن الفرات ومن كتب الشافعية **منهج**

الطالبين لمحي الدين النووي، و **منهج الطلاب** لزكريا بن محمد الأنصاري. ومن كتب التوحيد التي وجدت رواجاً **متن السنوسية** وهي مقدمة في التوحيد لأبي عبدالله السنوسي التلمساني (ت١٤٨٠م) ولها شروح مختلفة بعضها بأقلام سودانيين.(١٧)

واهتمت قلة من العلماء السودانيين بدراسة علوم القرآن والفرائض، ومبادئ النحو والصرف وعلوم اللغة والمنطق والحديث والأصول والأخبار والسير. ولما ازدادت معرفة العلماء السودانيين بالعلوم التقليدية أخذوا يحذون حذو رصفائهم في العالم الإسلامي في كتابة الشروح والحواشي، واهتم هؤلاء العلماء بجمع الكتب. ويروى عن الشيخ حامد اللين أنه باع عبداً له ليشترى بثمنه كتاب **الشبراخيتي على خليل** واستأجر الشيخ عبدالرحمن بن صالح ابن بان النقا النساخ لينسخوا له كل ما تقع ايديهم عليه في داخل البلاد، فلما أنجزوا ذلك بعث إلى مصر والحجاز يطلب غيرها، فملأ من ذلك ست خزانات. وقد ساعدت هذه المكتبة وغيرها في تبديد شيء من العزلة الفكرية التي كانت تهيمن على البلاد من جراء صعوبة المواصلات في الداخل وقلة الإتصال بالخارج .(١٨)
استهوت الثقافة الفقهية البحتة التي قد أوضحنا بعض سماتها قلة من السودانيين وانخرط عامة الناس في سلك المريدين من أتباع الطرق الصوفية، بل فضلوه على الطابع الفقهي. وقد تأثر الإسلام في السودان بالجو الصوفي المتفشي في العالم الإسلامي، بعد أن كتب للصوفية النصر في صراعها الطويل مع أهل السنة في القرن الثاني عشر الميلادي، على أثر تجربة الإمام أبي حامد الغزالي (ت ١١١١م) الذي وفق بين الشريعة والحقيقة عندما مزج بين تعاليم الشريعة والتصوف جاعلاً من الفقه أساساً لتعاليمه .

وبعد أن كان التصوف مطلب الصفوة من المسلمين صار مقصداً للجميع، فانتشرت الطرق الصوفية في سائر أنحاء العالم الإسلامي، وازدادت هيمنتها الروحية على الخاصة والعامة، إلاّ أن إنتشارها جعلها نهباً مشاعاً لكثير من

الجهلة والأدعياء فأخذوا يسبغون الكرامات وخوارق العادات على مشايخ الطرق ويتخذونهم عوناً لهم ضد قسوة الحياة وظلم الولاة .

فلما بدأ رواد المتصوفة نشاطهم في مملكة الفونج وجدوا التربة صالحة. والحق أنه قبل أن تتم عملية نشر التعاليم الإسلامية الصحيحة وقبل أن تستأصل العادات والمعتقدات القديمة بدأ الزحف الصوفي، ووصل مداه إلى السودان مشوباً ببعض العبادات غير الصحيحة. ولإنعدام المرتكز الفكري والثقافي ولقلة طبقة الفقهاء والمقتدرين والعاملين لنشر العقيدة الإسلامية على اساس سليم إنتقلت التعاليم الصوفية بكل ما فيها من شعوذة وعادات وثنية فامتصتها الطرق الصوفية المحلية دون تمحيص.(١٩)

كان أول الوافدين من رجال الطرق الصوفية الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي القادري الذي قدم في نحو عام ١٥٧٧م من بغداد عن طريق الحجاز حيث قابله داؤد بن عبد الجليل التاجر السوداني ودعاه لزيارة السودان. وفي أثناء إقامته التي بلغت سبعة أعوام سَلَّك تاج الدين عدداً من المريدين في طريقة القادرية التي أنشأها الشيخ عبد القادر الجيلاني (١٠٧٧ - ١١٦٦م) منهم الشيخ عجيب الكبير، ملك العبداللاَّب وشاع الدين ولد التويم جد قبيلة الشكرية، وحجازي بن معين، و الشيخ بان النقا الضرير، ورحمة جد الحلاوين، و الشيخ حمد النجيض صاحب مسجد إسلانج، والعمدة ولد عبدالصادق والشيخ محمَّد الهميم بن عبد الصادق الركابي.(٢٠) ولما أراد العودة إلى الحجاز يروى أنه قال لمريديه: "أنا جيت من بغداد لأجل هذا الولد }يعني الشيخ محمَّد الهميم{ خلفته في مكاني، مثل ما بتعاينوا لي عاينوا له وأداه الأسماء والصفات ومعرفة دخول الخلوات" .(٢١)

وطلب الشيخ تاج الدين من الشيخ عبداللَّه بن دفع اللَّه العركي، الفقيه الجليل، وأحد قضاة الشيخ عجيب، أن ينخرط في سلك القادرية فرفض الشيخ عبداللَّه متعللاً بأنه قد تفقه في الدين ولا يريد أن يشتغل بغير الفقه. ولكنه لما رأى ما حققه تلاميذ تاج الدين البهاري من مكاسب دنيوية حتى صارت كلمتهم مسموعة

عند ملوك الفونج والعرب، واشتهروا بالكرامات، قرر أن يلحق بتاج الدين في مكة فوجده قد مات وسلك الطريق على أحد مريديه،[٢٢] وعاد إلى بلاده مرشداً للناس في علمي الظاهر والباطن .

وقيل إن أول من "أوقد نار" الشيخ عبدالقادر الجيلاني (أي أحيا القادرية ونشرها) هو الشيخ ادريس ود الأرباب (١٥٠٧ - ١٦٥١م) الذي يروى أنه أخذها بمدد من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، أو من شيخ يدعى عبدالكافي قدم عليه "بالخطوة " من المغرب، وربما كانت الرواية الأخيرة صدى لصلة صوفية بالمغرب. وحول محمَّد الهميم، وبان النقا الضرير وعبداللَّه العركي وأحفادهم الصادقاب واليعقوباب والعركيين وغيرهم من المشايخ كالشيخ إدريس ود الأرباب وحسن ود حسونة ازدهرت الطريقة القادرية حتى صارت مقصد غالبية السكان.[٢٣]

وشهدت سلطنة الفونج انتشار طرق صوفية أخرى مثل الشاذلية والسمانية والختمية:

دخلت الشاذلية في موجتين إحداهما قبل قيام سلطنة الفونج علي يد الشيخ حمد أبو دُنَّانه. وربما ضاع أثرها قبل بدء الموجة الثانية التي اشتهر من أتباعها الشيخ خوجلي بن عبدالرحمن الذي جمع بين تعاليمها وبين القادرية. والشيخ حمد بن المجذوب (١٦٩٣- ١٧٧٦م) والذي صار من مريديها في الحجاز ثم نشرها بين مريديه من الجعليين و البجة. وازدهرت الشاذلية على أيدي حفدته المجاذيب وعرفت باسم المجذوبية[٢٤].

أما السمانية والختمية فقد كانتا نتاجاً لبعث صوفي شمل كل المقاطعات الجنوبية من الإمبراطورية العثمانية، وقد أنشأ الطريقة السمانية، وهي ذات صلة بعيدة بالخلوتية، الشيخ محمد عبدالكريم السمان في المدينة المنورة. وكان من تلاميذه الشيخ أحمد الطيب البشير الجموعي (١٧٤٢ - ١٨٢٣م) الذي هاجر طلباً للعلم. وعند عودته نشر الطريقة السمانية بين مريديه من الكواهلة

والحلاوين وبعض اليعقوباب بعد أن تخلوا عن الطريقة القادرية أو جمعوا بين تعاليمهما علي الأرجح.

وقد دخلت الختمية من الحجاز ايضاً على يد منشئها السيد محمد عثمان الميرغني(١٧٨٣- ١٨٥٣م) الذي إنحدر أسلافه من بخارى. وجاء السيد محمد عثمان للسودان بتوجيه من أستاذه الزعيم الصوفي والمصلح الديني أحمد ابن إدريس بقصد نشر الطريقة الإدريسية. ولكنه استقل عن الطريقة الأم وأقام طريقته الخاصة، وقد وجدت تعاليم الختمية وأورادها قبولاً شديداً خلال العهد التركي المصري.[٢٥]

تركز سعى أوائل المتصوفة الوافدين إلى السودان في بذر وتعهد مبادئ العقيدة الإسلامية مع الأخذ بمبدأ التبسيط والتيسير، فالمريدون لابد لهم من منهج سلوكي معين في عبادتهم ومسلكهم العام مع المداومة على قراءة أذكار وأوراد معلومة. ويبدو لي أنهم سعوا إلى بث مبادئ الدين بالتلقين وباستعمال الترانيم "والمدائح" والطبول في الأذكار الصوفية فأعطوها طابعاً إفريقياً خاصاً حتى حببوا كثيراً من العامة إلى طرقهم وما زالوا يفعلون. وكان المتصوفة يعتمدون في تحقيق مراميهم هذه على ما يتمتعون به من علم وخلق ديني وورع وزهد وسلطان روحي.

ساعد في تحقيق ذلك ما يعتقده المريدون من أن اللعنة تلاحق من يخالف الولي، وأن في مقدور الشيخ، لما يتمتع به من بركة، أن يساعد المريد في دنياه وآخرته، فهو نعم الوسيط بين العبد وربه في حياته وحتى بعد مماته. ومن ثم فلا غرابة في أن مشايخ الطرق كانوا يمثلون قوة روحية عظيمة الأثر في نفوس الناس، وهم في ذات الوقت أولي نعم على الفقراء، ومصدر خير كبير للمستضعفين، وحماة لهم جميعاً من عنت الحكام وجور السلاطين. ومثل هذا الفهم قاد بالضرورة الى تأييد طقوس الأولياء والطرق الصوفية.

ولقرب هؤلاء المشايخ من نفوس من حولهم كان إنتشار الإسلام على أيديهم أوسع

نطاقاً، إلاّ أنه كان مشوباً بكثير من الشعوذة والخرافة، فالتف المريدون حول مشايخهم في مساندة بعيدة المدى بلغت حد إضفاء خوارق الأعمال عليهم، كإحياء الموتى وإبراء المرضى والتحدث عن الغيبيات التي يتكرر ذكرها صفحة بعد الأخرى في **طبقات ود ضيف الله**.(٢٦)

لم يقتصر الإيمان بكرامات الأولياء على عامة الناس إنما انسحب أثره على الملوك والسلاطين ايضاً فأضحوا لا يقدمون على عمل شيء إلا بعد استشارة الأولياء، كما كان هو الحال مع الشيخ عجيب الذي انتوى محاربة الفونج فكان أن تنبأ له الشيخ إدريس ود الأرباب بالهزيمة وبأن خصومه سيسودون ذريته إلى يوم القيامة٠ ولما استنجدت الأميرة كميرة بالشيخ خليل الرومي ليناصر اخاها السلطان بادي ولد أونسه في حربه ضد الهمج كي يستعيد عرشه اشترط توبة السلطان وقد فعل٠ فقال له الشيخ خليل: "الفونج أخذوا عمامة الملك منك، فخذ عمامتي هذه، وضمنت لك ملك أبيك إلى أن تموت"٠
وكثيراً ما ترد عبارة "وكانت لا ترد له شفاعة" في معظم تراجم الأولياء التي ذكرها ودضيف الله٠(٢٧)

إزاء هذا الإحترام والتأييد حظي المتصوفة (كالعلماء) بعون مادي إذ أقطعهم الحكام القطائع، وأعفوهم من الضرائب، بينما غمرهم المريدون بالنذور والهدايا. فتمكنوا بذلك من القيام بدورهم في الترشيد الديني والهداية الروحية بجانب التصدق على من يستحق الصدقة والعون، وإيواء أبناء السبيل، فكانوا بذلك قد وضعوا نواة وحدة واستقرار وتلاحم والفة أو ما يشبه "التكافل الإجتماعي"٠
وبرغم أن بعض الفقهاء لم يكونوا ليحسنوا الظن بالمتصوفة، فإنهم بدأوا يترسمون خطاهم بعد أن شاهدوا ما حققه رجال الصوفية فكان أن جمع العلماء بين علمي الظاهر والباطن. ونجد في سيرة الشيخ دفع اللّه بن الشيخ أبي إدريس والشيخ مضوي بن مدني والشيخ شرف الدين بن علي ود برّي أبلغ دليل على ذلك.(٢٨)

والحق نقول إن وظيفة كل من الشيخ الصوفي والفقيه العالم لم تكن منفصلة للحد الذي أوضحته في الصفحات الماضية· بل لعله من العسير جداً أن نفرق بين الوظيفتين. ويتضح التلاحم بين الوظيفتين في الإستعمال المحلي إذ تعني كلمة "فكي" فقيه، وتجمع "فقرا " أي فقهاء· وترمز كلمة فقير إلى الصوفي، وتجمع فقراء أي متصوفة. وبذلك صارت كلمة "الفكي" تشير دون تمييز إلى الفقيه الصوفي· ومرد ذلك كله أن الفقهاء جمعوا بين علمي الظاهر والباطن، وصاروا يعلمون النشء مبادىء الفقه كما "يسلكون" الكبار في طريق القوم في الخلوة· والخلوة في الأصل موضع يعتزل فيه العباد الناس بقصد التعبد، ثم استعملت لتدريس القرآن ومبادىء الفقه وأداء الصلوات· ومن ثمَّ جمعت الخلوة بين الوظيفتين التعبدية والتعليمية بعد أن جمع الشيخ الواحد بين وظيفة الفقيه والفقير فصار "فكياً"، بل صارت الخلوة وهي محور نشاط الفكي مركزاً للإشعاع الروحي والثقافي والإجتماعي في سائر القرى.[٢٩]

وخلاصة القول فإن المرحلة الثانية لنشر مفاهيم العقيدة الإسلامية وتعميقها جاءت، بعد اكتمال موجات الهجرات العربية، على يد العلماء والمتصوفة الذين أسهموا بما لديهم رغم محدودية محصولهم الثقافي والفكري، فقد كان عطاؤهم على قلته سخياً· أما التصوف فقد كان له صدى واسع في نفوس السودانيين تشهد على ذلك الأضرحة والقباب المنتشرة عليشواطىء النيل خاصة في مشيخة العبداللاّب·

وقد التقت تعاليم الفقه الإسلامي النظرية والجوانب العملية من التصوف مع الموروث المسيحي والوثني على بساط واحد دون صراع يذكر، الشيء الذي يعكس نوعاً من التسامح والتراضي ما زال موجوداً بين سائر السودانيين·

ما أن اكتملت غلبة الثقافة الإسلامية وأحرز الإستعراب تقدماً ملحوظاً خاصة بين النوبيين، أو سكان المنطقة الواقعة شمال ملتقى النيلين، حتى خرج جماعة

من الفقهاء ورجال الطرق الصوفية يحملون مشعل تعميق التعاليم الإسلامية إلى منطقة جنوب الجزيرة، وإلى تقلي، وكردفان، ودارفور. وليست ظاهرة "الغريب الحكيم" التي أسلفنا ذكرها إلاّ أحد سمات نقل الإسلام وحضارته وتعاليمه من بلاد النوبة ذات المضمون الحضاري العميق إلى مناطق أقل تحضراً وأقل تأثراً بالإسلام.

ويُرجح أن انتشار الإسلام قد مر في كل من كردفان ودارفور بمرحلتين رئيسيتين لا تختلفان كثيراً عمَّا حدث في حوض وادي النيل الأوسط، وإن كان انتشار الإسلام والثقافة العربية فيهما أكثر بطئاً.

وترتبط المرحلة الأولى بدخول التجار المسلمين من أطراف القارة الأفريقية في الشمال والشرق ومن المغرب وأواسط بلاد السودان، ثم تبعتهم هجرة القبائل العربية في أعداد كبيرة من المنطقة السفلى للنيل، وأدى ذلك كله إلى نشر نوع من الإسلام نتيجة المصاهرة والاختلاط. وبدأت المرحلة الثانية بقيام بعض الممالك الإسلامية خاصة مملكتي تقلى والفور اللتين ربما كانتا في بعض مظاهرهما نتاج هجرة بعض الفقهاء إليهما، فشجعتا قدوم الفقهاء والمتصوفة الذين أخذوا ينشرون العقيدة الإسلامية على أسس سليمة. وقد تقاطر هؤلاء العلماء من مملكة الفونج خاصة من مجموعتى الدناقلة والجعليين، ومن مصر والحجاز وأواسط بلاد السودان.

وقبل هجرة هؤلاء العلماء من مملكة الفونج جذبت بعض مراكز التعليم والطرق الصوفية عدداً من الطلبة من المجتمعات حديثة العهد بالإسلام في كردفان ودارفور. مثال ذلك أن من بين طلبة الفقيه محمد القدال ، الذى اشتهر بتدريس خمس مجالس يومياً في **مختصر خليل** و **رسالة ابن أبي زيد القيرواني** والعقائد أي التوحيد، والتفسير و **قراءة الجامع الكبير في الحديث،** نحو ألف وسبعمائة وخمسين طالباً من التكرور. والتكرور لفظ يطلق على الوافدين من المنطقة الواقعة غرب دارفور وتشتمل عند سكان السودان الشرقي قبائل التكرور

والهوسا والفلاتة والبرنو والبرقو وبعض سكان دارفور. ولما اشتد القحط المعروف بسنة أم لحم (١٦٨٧ - ١٦٨٨م) نجع الشيخ القدال إلى كردفان حيث استضافه تلميذه الشيخ جودة، والد الشيخ مختار شارح **مختصر الأخضري** في العبادات.[٣٠] وقد بلغ طلبة الشيخ أرباب الخشن المشهور بأرباب العقائد (ت١٦٩١م) أكثر من ألف طالب جُلَّهُمْ من المنطقة الممتدة بين جنوب الجزيرة ودار البرنو.[٣١]

وممن هاجروا إلى دارفور من علماء سنّار الشيخ أبوزيد بن الشيخ عبدالقادر وسكن في كساب الواقعة شمال كتم، ثم نزح إلى السلطان يعقوب أبن عروس (١٦٨١-١٧٠٧م) الذي أجلَّهُ وأكرمه. وعاد إلى دارفور حيث مات بها على أثر خلاف بينه وبين السلطان يعقوب.[٣٢] وقد هاجر إلى دارفور ايضاً الفقيه أبو سرور الفضلي الجعلي، رفيق الشيخ أبي زيد بن الشيخ عبدالقادر وهناك درَّس ولاقي قبولاً حسناً عند ملوكها ثم هاجر إلى دار صليح.[٣٣]

وكان للشيخ حمد بن علي المشيخي المشهور بود أم مريوم (١٦٤٥ - ١٦٤٦ - ١٧٢٩- ١٧٣٠م) أتباع كُثرمن قبيلة فزارة عامة ومن بني جرّار خاصة، وكانوا يأتونه بزكاة ماشيتهم كل عام فكان يشترى بثمنها رقيقاً، ثم يعتق نصفه بعد أن يفقههم في الدين. وفي ذات مرة أغارت على بني جرّار جماعة من الفور وتمكن بنو جرّار من أسر سبعين منهم، وقدموهم هدية للشيخ حمد. وبعد أن أعتنقوا الإسلام ديناً، اعتقهم وأمرهم بالرجوع إلى ديارهم حتى يدعوا للدين الإسلامي.[٣٤]

لا شك أن قيام مملكة تقلي الإسلامية في الإقليم الشمالي من جبال النوبا كان يمثل منطلقاً جديداً في منطقة نائية على يد أسرة اشتهر مؤسسها "الفكي" محمد الجعلي وأحفاده بالدعوة للإسلام الذي كان يمثل واحداً من مناشطها التقليدية كما تروى الأخبار الشفاهية. وقد ألمحنا من قبل لصلة كل من الشيخ تاج الدين البهاري ناشر الطريقة القادرية في مملكة الفونج والشيخ مكي

الدقلاشي بمملكة تقلي. إلا أن كردفان لم تشهد ازدهار مدارس دينية أو مراكز صوفية كما هو الحال في مملكة الفونج. ولعل مرد ذلك غلبة حياة البداوة على معظم سكانها، وفشل المسبَّعات في إقامة حكومة مستقرة مزدهرة تشجع استقرار العلماء وتهيئ لهم فرص التدريس. بل إن معظم السهول الشمالية والمنطقة الوسطى من كردفان كانت مسرحاً لحروب دامية بين الفونج والفور والمسبَّعات استمرت طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

ولما كانت كردفان خالية من مدارس العلم إلى درجة كبيرة فقد طلب تلاميذها العلم في مملكة الفونج. ومن هؤلاء الفقهاء جودة اللّه، وهو من بني محمَّد وكان يسكن الزلطة (الواقعة شمال شرق الأبيض) في دار الريح. ودرس في الجزيرة على الفقيه محمد القدال وعند عودته أنشأ مدرسة إزدهرت على يد ابنه مختار الذي تفقه أولاً على والده وعلى فقيه قدم من المشرق ثانياً، ثم تصدى لتدريس الفقه والتوحيد وسائر الفنون حتى عمرت حلقته وكثر تلاميذه. ومات شهيداً على يد جنقل المسبَّعاوي. ومنهم جودة اللّه والدومة وهما من بني عمران (وهم من بعض العرب الذين هاجروا من مصر من منطقة دراو وانتشروا في وسط كردفان بين البديرية، وكانوا يحترفون التجارة والعلم) ودرسا الفقه على الشيخ صغيرون في القوز جنوب شندي.[٣٥]

كان لعائلة بشارة الغرباوي، وهم بديرية دهمشية هاجروا من دنقلا إلى كردفان، دور قيادي في نشر العقيدة الإسلامية في كردفان، وقد إشتهر من هذه الأسرة الشيخ إسماعيل الولي (١٧٩٣ - ١٨٦٣م) وكان والده قد هاجر إلى كردفان. وبعد ارتباط وثيق بكل من الشيخ أحمد البشير الطيب، مؤسس الطريقة السمانية في السودان، والسيد محمد عثمان الميرغني صاحب الطريقة الختمية. أسس الشيخ إسماعيل طريقة إسماعيلية في سنة ١٨٤٢م.[٣٦]

ويلقى وصف الرحالة البوهيمي بالمّ Pallme، الذي زار الأبيض في سنة (١٨٣٨م - ١٨٣٩م) ضوءاً على نشاط الدعاة المسلمين في ذلك الوقت. وبالرغم

من أن وصفه لنشاط الشيخ بدوي "أبو صفية" يتأخر عن فترتنا فإن الوصف يبدو مطابقاً لما حدث في وقت مبكر. يقول بالمّ: "كان الشيخ بدوي رجلاً تقياً، وقد يكون أي شيء إلا منافقاً ولذا فهو محبوب. ولقد حاز على حسن راي جميع الرجال. كان يفض المنازعات ويحسن نصح من يستنصحه... فهو بالإختصار خير داعية مسلم أو مبعوث محمَّدي، واستطاع أن يجمع ألوفاً من المعتنقين وسط الزنوج الوثنيين لأنه يتجول في معظم أوقات السنة في الجبال محاولاً نشر الإسلام··· وكان يدافع عن عقيدته بنص القرآن وبحد السيف، وقد فقد احد أبنائه في القتال دفاعاً عن ذلك الغرض النبيل".(٣٧)

غير أن انتشار الإسلام الواسع في السودان الشرقي كان سلمياً في جملته ولم يصحبه ما يوازي حرب الجهاد المنسوبة إلى الإمام أحمد القران في الحبشة، أو الشيخ عثمان دان فوديو في أواسط بلاد السودان·

تدل الأمثلة التي سقناها على أن أثر علماء مملكة الفونج علي كردفان كان أغلب من أثر رصفائهم علي سلطنة الفور. ومن المحتمل أن تكون كردفان قد تأثرت بتيار آخر من وسط وغرب بلاد السودان.

اقترن انتشار الإسلام في دارفور بالمناشط التقليدية التي حددناها من تجارة وهجرة عربية ووفود فقهاء خاصة من مصر، وسودان وادي النيل، وشمال افريقيا، واواسط بلاد السودان ويروى أن الإسلام قد انتشر في تلك البلاد منذ عهد التُنّجُر، إلاّ أنه وجد تأييداً واهتماماً أكثر من قِبل ملوك الكيرا، فقد اشتهر السلطان أحمد بَكُر بأنه قد أنشأ مساجد ومدارس، كما شجع السلطان محمد تيراب العلماء الوافدين من مصر وتونس على الإستقرار في بلاده وأجزل لهم العطاء· وتبدأ عملية نشر الإسلام الحقيقي في عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد، كما اوضحنا من قبل· وقد أصبغ تشجيع السلطان عبد الرحمن للعلماء صبغة دينية خاصة على الدولة: ومن هولاء عمر التونسي، وهو عربي تونسي قدم من الحجاز ثم قضى بعض الوقت في سنّار، وتبعه مؤخراً ابنه محمَّد الذي

صار كتابه **تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان** عن دارفور مصدراً هاماً لتاريخها. ومنهم الفقيه الشيخ التمرو الفلاني من المغرب، والشيخ حسين عماري الأزهري من مصر، والفقيه القاضي عزالدين الجامعي من سودان وادي النيل، والشريف سرور بن مساعد من أشراف مكة المكرمة،[٣٨] وغيرهم ممن ذكرنا عند حديثنا عن سلطنة الفور.

وبالرغم من الأثر الواضح الذي تركه "الفقرا " الوافدون من مملكة الفونج في إزدهار الثقافة الإسلامية في سلطنة الفور، فإن تلك المملكة وقعت تحت تأثير الثقافة الواردة من أواسط بلاد السودان والمغرب. ويعزى ذلك للمؤثرات التجارية والثقافية والسياسية التي طرحتها امبراطورية كانم - برنو، ووداي (خاصة البرقو). وكان ذلك الإقليم قد عرف الإسلام منذ القرن الحادي عشر.

فالمغرب بجانب إسهامه في نشر العقيدة الإسلامية والمذهب المالكي قد ترك أثراً في تجويد القرآن والخط العربي. فمن بين القراءآت المختلفة فإن أغلبية السودانيين يقرأون برواية الدوري عن أبي عمرو بن العلاء. أما في دارفور وكردفان ودنقلا فإنهم يقرأون برواية ورش عن نافع. وكان هذا الإختلاف في القراءآت أكثر وضوحاً في المغرب منه في مصر، وربما دخل السودان عن طريق التلمساني المغربي الذي دَرَّس علوم القرآن لمحمَّد ولد عيسى سوار الذهب في دنقلا ومنه انتقلت إلى الجزيرة. وفي الوقت الذي تبنت فيه مملكة الفونج الخط العربي العادي فإن سلطنة الفور أخذت بالخط الأندلسي والذي كان معروفاً في المغرب، وهذه الطريقة من الكتابة تعرف محلياً بخط ورش.[٣٩]

ببداية القرن التاسع عشر ونتيجة للهجرات العربية للتيارات الإسلامية التي تدفقت من مصر والحجاز وشمال أفريقيا والمغرب فقد رست دعائم عقيدة إسلامية قوية في السودان الشرقي. وعلي كل فإن بقاء بعض المعتقدات غير الإسلامية ووجود بعض جيوب القبائل الوثنية في جبال النوبا ودارفور (على الأرجح) وجبال الفونج يوضح أن إسلام القطر لم يكتمل بعد. وأكثر من ذلك فإن

إنعزال القطر واعتماده الكبير على الفقهاء المحليين"أو الفقرا" والمتصوفة، ذوي القدرات الثقافية والفكرية المحدودة، جعل مكاسب السودان الشرقي عامة وإنجازاته الأدبية والعلمية خاصة، إبان تلك الفترة محدودة وتفتقد الأصالة.

وبعد فإن إستيعاب كثير من شعوب السودان الشرقي للإسلام وتمثلهم للثقافة العربية أدى إلى خلق نوع من التماسك والترابط بين تلك المجموعات المختلفة، كما أسهم في بذر نوى بعض المقومات الاساسية لوحدة وطنية وسياسية أبقى وأشمل بين الممالك الإسلامية التي إنتشرت في السودان الشرقي.

هوامش الفصل السادس :

(١) **طبقات ود ضيف الله** ، ١٨-, ٢٣

(2) MacMichael; *Ar abs*, II,35; Trimingham , *Sudan* , 223

(3) Alvars, II, 461.

(4) Milet; " Jebel Adda, Preliminary Report", *Journal of American Research Center in Egypt*, VI, 1967,62.

(5) Trimingham, *Africa*, 23.

(٦) **طبقات ود ضيف الله**، ٤٠ .

(٧) **طبقات ود ضيف الله**، ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٨) عبدالعزيز عبدالمجيد، ٥ ،٥٢ .

(٩) **طبـقـات ود ضـيـف الله**، ٤٥ - ٤٧ ؛ Yusuf Fadl Hasan ; " External Influences", *Sudan in Africa*. 124.

(١٠) المصدر السابق، ٢٣٤ - ٢٣٦ .

(١١) **طبقات ود ضيف الله** ، ٧٣ .

(١٢) المصدر السابق، ٤٩ - ٥٦ - ٩٩ - ١٠٠ - ١٩٠ - ٢٠١ .

(١٣) المصدر السابق، ١٠٠ - ١٠١ .

(١٤) المصدر السابق، ٤ .

(١٥) قارن بابن خلدون، ١، ٥٠٨ .

(١٦) **طبقات ود ضيف الله**، ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(١٧) المصدر السابق، ٥ ، ٦ .

(١٨) المصدر السابق، ٥ - ٦ .

(١٩) المصدر السابق، ٧ - ٨ .

(٢٠) المصدر السابق، ١٢٧ - ١٢٩ .

(٢١) المصدر السابق، ٣٢١ .

(٢٢) المصدر السابق، ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٢٣) المصدر السابق، ٤٩ - ٧٠ ، ١٠٨ - ١٠٩ ، ١٣٣ - ١٤٨، ٢٥٠ - ٢٥١ ، ٣١٦ - ٣٢٢ .

(٢٥) عبدالعزيز عبدالمجيد، ١، ٢٤٣ - ٢٤٤ Yusuf ; 222-7 ; Trimingham , *Sudan*
Fadl Hasan ;"op . cit.", *Sudan in Africa*,8.

(٢٤) المصدر السابق، ١٨٧ - ١٨٨ - ١٩٠ - ٢٠١ .

(٢٦) **طبقات ود ضيف الله** ، ٨-١٠ .

(٢٧) المصدر السابق ، ١١،٢٠٢،٢٠٣ .

(٢٨) المصدر السابق ،٢٠٥-٢٠٧، ٢٢٨-٢٣٢ .

(٢٩) المصدر السابق، ١١-١٣، ٣٤١ .

(٣٠) المصدر السابق، ٨٠ ، ٨٢ .

(٣١) المصدر السابق، ٩٩ - ١٠٠ .

(٣٢) المصدر السابق، ١٠٦ .

(٣٣) المصدر السابق، ١٠٥ .

(٣٤) المصدر السابق، ١٧٦ ، ١٨٠ .

(٣٥) المصدر السابق، ١٣٠ ، ١٤٥ .

(36)MacMichael , *Arabs*, 11,71 ; Trimingham , *Sudan*, 235 .

(37)Pallme, 189-190.

(٣٨) التونسي ، ١١٦ ، ١١٧ .

(39)Yusuf Fadl Hasan, " op. cit", *Sudan in Africa*, 11.

ثبت المصادر والمراجع

اكتفيت بالإشارة إلى المصادر والمراجع في الحواشي باسم المؤلف فقط ، فإن كان للمؤلف أكثر من كتاب واحد ألحقت الاسم بعنوان مختصر وضعته بين قوسين في هذه القائمة ،إلا في حالات نادرة ، مثل [طبقات ودضيف الله]نبهت إليها في هذا الثبت .

١ . مخطوطات عربية:

تاريخ الملوك الفونج ببلد سنار

Bodleian Library, Ms Bruce 18 (s) ff. 54b-57 a.

عبد الله بن الأرباب الحسن بن شاور

أ - سيرة ملوك العبدلاب {ملوك العبدلاب}،

دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

ب _واضح البيان في ملوك العرب بالسودان

[واضح البيان]دار الوثائق القومية، الخرطوم .

محمد عبد الرحيم

أبطال السودان، دار الوثائق القومية، الخرطوم.

مخطوطات كاتب الشونة

أحمد بن الحاج بن علي وآخرين

أ- مخطوطة باريس، Bibliotheque National, Ms Arabe 5069, Paris.

ب - مخطوطة المتحف البريطاني،

British Museum Or. 2345, London.

ج - مخطوطة فيينا،

National bibliothek, Ms Mixt 677 a, Vienna.

د- مخطوطة دار الكتب المصرية تاريخ رقم ١٨م، مكتبة فاضل، القاهرة.

ملوك العبدلاب، انظر عبد الله بن الأرياب الحسن بن شاور.

أحمد بن الفكي معروف — نسبة أحمد بن الفكي معروف، دار الوثائق القومية، الخرطوم .

إسحاق محمد شداد، — نسبة إسحاق محمد شداد، دار الوثائق القومية، الخرطوم.

الجليلاب، — نسبة الجليلاب، دار الوثائق القومية، الخرطوم.

النور احمد عنقرة، — نسبة النور احمد عنقرة، دار الوثائق القومية، الخرطوم.

النويري أحمد عبد الوهاب، — نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٣م.

(٢) مؤلفات العربية المطبوعة

أبو سليم ، محمد إبراهيم — **الفونج والأرض: وثائق تمليك**، شعبة أبحاث السودان، الخرطوم ١٩٦٠ .

احمد بن الحاج أبو علي — (١) **مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارية المصرية**، تحقيق الشاطر بصيلى عبدالجليل، القاهرة،١٩٦١ . (**مخطوطة كاتب الشونة**)

تاريخ ملوك السودان، تحقيق مكي شبيكة، الخرطوم، ١٩٤٧ . (**تاريخ ملوك السودان**)

احمد عبد الرحيم نصر — **تاريخ العبدللاّب: من خلال رواياتهم السماعية**، شعبة أبحاث السودان، الخرطوم، ١٩٦٩,

ابن خلدون ، عبد الرحمن — **كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر**، بيروت، ١٩٦٧، ج ٢، ٥ .

ابن عساكر — **تهذيب تاريخ ابن عساكر**، لعبد القادر ابن احمد الرومي الدمشقي الحنبلي دمشق، ١٣٤٩، ج٦ .

ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم — **تاريخ ابن الفرات أو تاريخ الدول والملوك**، بيروت، ١٩٤٢، ج .

آدم الزين — **التراث الشعبي لقبيلة المسبعات**، شعبة أبحاث السودان، الخرطوم، ١٩٧٠ .

تاريخ ملوك سنّار — انظر احمد بن الحاج أبو علي.

التونسي، محمد بن عمر — **تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان**، تحقيق خليل محمود عساكر ومصطفي محمد مسعد، القاهرة، ١٩٥٩ .

الدمشقي، شمس الدين عبد اللّه، — **كتاب نخبة الدهر في عجائب البروالبحر**، بطرسبورج، ١٨٦٥ .

الشاطر بصيلي عبد الجليل — **معالم تاريخ سودان وادي النيل**، القاهرة، ١٩٥٥ .

صلاح محي الدين، — "مخطوطة تاريخية عن ملوك العبدالّلاب" **مجلة الخرطوم**، ديسمبر ١٩٦٧، ٥٦-٦٠ .

طبقات ود ضيف اللّه — انظر محمد النور بن ضيف اللّه.

عبد العزيز أمين عبد المجيد، — **التربية في السودان** ، القاهرة ، ١٩٤٩، ٣ أجزاء .

عبد القادر محمد عبد القادر — "تاريخ مملكة تكلي"، **مجلة المجلس**، العدد ١٢٢، ١٩٦٢، ٣-.

عبد المجيد عابدين — **تاريخ الثقافة العربية في السودان** ،بيروت ١٩٦٧ .

القلقشندي ، احمد بن عبد اللّه — **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، القاهرة، ١٩٦٣، ج٨ .

محمد بن النور بن ضيف اللّه — **كتاب الطبقات في الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، الخرطوم، ١٩٧١[**طبقات ود ضيف اللّه**].

مخطوطة كاتب الشونة — انظر احمد بن الحاج أبو علي.

المقريزي ، احمد بن عبد القادر — **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك**، القاهرة، ١٩٣٤، ج أو [**السلوك**]

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار،

القاهرة ، ١٩٢٢، نشر فيت ج ٣ **[الخطط].**

نعوم شقير — **جغرافية وتاريخ السودان القديم** ، بيروت ، ١٩٦٧ .

اليعقوبي ، أحمد بن واضح — **كتاب البلدان** ، لايدن ، ١٨٩١ .

يوسف فضل حسن — "القتل الطقسي عند الفونج"، **مجلة الدراسات السودانية،** العدد الاول المجلد ٢، ١٩٧٠، ٣٢- ,٤٧ **[القتل الطقسي عند الفونج.]**

"المصادر السودانية الأولية قبل المهدية" **مجلة الدراسات السودانية** العدد الاول المجلد ٣، تحت الطبع.{**المصادر السودانية**}

Abbreviations

B. S. O. A. S, Bulletin of the School of Oriental and African Studies.
E.I.2, Encyclopedia of Islam, Second Edition.
J .A .H. , Journal of African History.
S.N.R. 1, Sudan Notes & Records.

G. D'Alibano, *History Della Missione Francanan in Alto Egitto Fungi Ethiopia, 1686-1720,*Cairo, 1961.
F. Alavers, *The Prester John of the Indies,* Cambridge, 1961, II:
J. A. Arkell, "Fung Origins", *S.N. R.,* XV, (1932), 200-250.
More about the Fung Origins "*S.N.R.,* XXVII ", (1947),87-98.
"History of Darfur", *S.N.R.,* XXXII, (1951), 38-70.
"The Mediaeval History of Darfur, *S.N.R.,* XXXII(1951),207-238.
"History of Darfur ", 1200-1700, *S.N.R.,* XXX, (1952),129-155.
"History of Darfur ", 1200-1700 A. D, S.N.R., XXXIII,(1952), 244-275.
H. Barth, *Travels and Discoveries in North and Central Africa,* London, 1857,II.
A. C. Beaton, " The Fur ", *S.N.R.,* XXIX, (1948), 1-39.

W. G. Browne, *Travels in Africa, Egypt and Syria,* 1792-98, London, 1799.
J. Bruce, *Travels to Discover the Sources of the Nile,* Edinburgh, 1804, VI, VII.
E. de Cadalvene et J. de Breuvery, *Egypt et la Turquie,* I, Paris, 1839.
J. D. P. Chataway," Notes on the History of the Fung ", *S. N .R,* X III, (1930), 47-58.
E.Cerulli, *Somalia, Scritti Vari Editi Ed. Inediti,* Roma, 1957,I.
O.G.S. Crawford, *The Funj Kingdom of Sennar*", Gloucester, 1951.

R. J. Elles, " The Kingdom of Tegeli ", *S.N.R., III XV* (1935), 1-35.

E. E. Evans - Pritchard, " Ethnological observations in Dar Fung", *S.N.R.*, XV (1932), 1-62g.

S. Hilleleson, "David Reubeni: An Early Visiter to Sennar ", *S.N.R.*, XVI, (1933), 55-66.

P, M. Holt, *A Modern History of the Sudan, London*, 1963, [Sudan].

E I.2, II, 121-125. "Dar Fur",

"Funj Origins: a Critique and New Evidence", *J.A.H.*IV, (1963), 39-55.

A Sudanese Historical Legend, the Funj Conquest of Suba", *B. S. O. A. S.*, XXIII, (1960), 1-12.

"Sultan Selim I and the Sudan", *J. A. H.* VIII, (1967), 19- 33.

J. Ludolphus. *A New History of Ethiopia*, London, 1682.

H. A. MacMichael, *A History of the Arabs in the Sudan*, Cambridge, 1922, 2 Vols. [*Arabs*].

The Tribes of Northern and Central Kordofan, Cambridge, 1912, [*Kordofan*]

N. B. Millet, "Jebel Adda, Preliminary Report", *Journal of the American Research Center in Egypt*, VI, (1967) 53-63.

C. Nachtigal, *Sahara und Sudan*, Leipzig, 1967, III.

L. F. Nadler, "Fung Origins", *S. N. R.*, XIV, (1913), 61-65.

W. Nichols, *The Shaikiya*, Dublin, 1913.

R. S. O'Fahey "Religion and Trade in the Fur Sudtante", *Sudan In Africa*, ed. Yusuf Fadl Hasan, KUP., 1970.[*Religion and Trade*].

"*State and State Formation in the Eastern Sudan*, African Studies Seminar Series, Sudan Research Unit, University of Khartoum, 1970. [*State Formation*].

A. B. Ogot, *History of the Southern Lou*, Nairobi, 1967, I.

R. Palmer, *History of the First 12 Years of the Reign of Mai Idris*

Alooma of Bornu 1571-85, by His Imam Ahmed Ibn Fartau, Lagos, 1626.

I. Pallme, *Travels in Kordofan*, London, 1844.

A. Paul , *A History of the Beja Tribes of the Sudan*, Cambridge, 1954.

A.E. Penn;"*Traditional stories of the Abdallab tribe*", *S.N.R., XVII*, (1934), 59-82.

A.E.R. "*The Fung Drum or Nehas*", *S.N.R.*, IV, (1921), 211-12.

R.C. von Slatin, *Fire and sword in the Sudan*, London, 1896.

R.C. Stevenson, "Some aspects of the Spread of Islam in the Nuba Mountains", *S.N.R.*, XLIV(1963), 9-20.

The Nuba People of Southern Kordofan: An Ethnographic Survey. Unpublished M.Sc. (Econ.) Thesis, University of Khartoum.

J.S. Trimingham, *The Influence of Islam upon Africa*, London, 1968, [*Africa*].

Islam in the Sudan, London, 1949, [*Sudan*].

El-Tounsy, M. Ibn Omar, *Voyage au Ouaday*, Paris, 1851.

P. Westermann, *The Shilluk People and their Language*, Philadelphia, 1912.

Merid Wolde and Habilie Selasie, "Sudanese Ethiopian Relations before the Nineteenthth Century", *Sudan in Africa*, 63-72.

Yusuf Fadl Hasan, *The Arabs and the Sudan*, Edinburgh, 1967, [*Arabs*].

(ed.) *The Sudan in Africa*, Studies presented to the first international Conference, Sudan Research Unit, 1968, K.U.P., [*Sudan in Africa*],

"External Islamic influences and the progress of Islamization in the Eastern Sudan between Fifteenth and Eighteenth centuries", *Sudan in* Africa. "External Influences"., 73-86.

"The Umayyad Genealogy of the Funj", *S.N.R.*, XLVI(1965), 27-32. [*Umayyad Geneology*].

رقم الإيداع
٢٠٠٣/٣٣٧

الطابعون دار السداد للطباعة
إحدى مؤسسات دار مصحف إفريقيا
موبايل ٠٠٢٤٩٩١٢١٣٧٧٢٥ - ٠٠٢٤٩٩١٢٣٧٩٦٨١
ثابت ٠٠٢٤٩١٥٥١٨٨٢٥٤
بريد إلكتروني alsdad_phrkia@hotmail.com